روايــة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أحمد الصراف

عبد اللطيف الأرمني
والتفاحات الثلاث

ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا
sa7eralkutub.com

realpage=0001x

عبد اللطيف الأرمني

والتفاحات الثلاث

realpage=0002x

realpage=0003x

عبد اللطيف الأرمني

والتفاحات الثلاث

رواية

أحمد الصراف

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

realpage=0004x

realpage=0005x

إهداء

إليك، فلولاك ما كانت هذه الرواية.

أحمد

realpage=0006x

realpage=0007x

ملاحظة

فكرت في كتابة هذه الرواية القصيرة، بعد أن تبلورت أحداثها في رأسي قبل عام تقريبا، وكدت أصرف النظر عنها، بالرغم من ارتباطي النفسي بها، بعد أن تبين مقدار الجهد والوقت الذي يتطلبه إنهاؤها، خاصة وأنني منشغل ومستمتع بكتابة عمودي اليومي في صحيفة «القبس» الكويتية، وهي مهمة ليست بالهينة على كاتب غير محترف مثلي، خاصة وأن ما كان يطن في رأسي طوال الوقت من أفكار تتطلب الصياغة والتحول لمقال، وهذا كان يأخذ جل وقتي إضافة لانشغالي بأعمالي التجارية، وسفري المستمر. ولكني حسمت أمري بعد حفل توقيع كتابي «كلام الناس»، في إبريل 20، في فندق الشيراتون، بعد ما وجدته من تجاوب كبير من الحضور وحثهم لأن أتجه لكتابة الرواية، فهذا أعادني بقوة لفكرة إنهاء ما بدأت به.

وهنا يجب أن أبين فضل أصدقاء وصديقات أعزاء، من أمثال الكاتب سعود السنعوسي، ساهموا مباشرة وبغير ذلك، في بلورة فكرة الرواية وإخراجها بصورتها المتواضعة التي بين يديك.

لقد قرأت آلاف الروايات في حياتي، واكتشفت الآن فقط أن كتابة القصص ليست نزهة بل معاناة مع النفس، وصراع مع الفكرة، وسباق مع الوقت، بحثا عن الكلمة قبل أن تختفي، والحبكة قبل أن تُنسى.

realpage=0008x

realpage=0009x

الجزء الأول

realpage=0010x

realpage=0011x

الفصل الأول

أنا كالوست سيرج بازليان

وهذه أوراق أبي

قد تكون قصتي غريبة إلى حد ما، كغربتي وغربة أسرتي وغربة قومي المستمرة.

ولدت، حسب سجلات الكنيسة الأرمنية في مدينة حلب العام 1922، وفي بيئة غريبة، ولم أعلم وقتها أن حياتي كلها ستكون غريبة، غريبة في لغتها وطعمها وطعامها، وعاداتها وتقاليدها، وحتى دينها. وعندما تزوجت، تم ذلك بطريقة غريبة، وفي بيئة غريبة، بخلاف رغبة والدي.

كان والدي مهووسا بقوميته وتعصبه لكل ما هو أرمني من حديث وطعام وثقافة. حتى أصحابه كانوا جميعا تقريبا من الأرمن، على قلتهم. كان يطلب منا أن نكون أرمنيين مثله، وكان يعطي الاحتفال بأية مناسبة أرمنية سعيدة أو حزينة أهمية فائقة، ويستعد لها مسبقا، ولكنه كان قليل الحديث في موضوع العودة لوطن غادره، ويتجنب الدخول في أي نقاش يتعلق بحق الأرمن في العودة لوطن طردوا منه أو في حقهم بالتعويض المادي المناسب، حيث كان يلمّح أن من العبث الحديث في ذلك الموضوع وإن علينا كأرمن أن نبقي على هويتنا ونحافظ عليها ونعيش حيث نحن ونعلم أبناءنا، وهذا ما كان يهمه أكثر.

realpage=0012xتوقف التواصل بيني وبين كامل أسرتي، وبالذات أمي، بعد كل ما سببته لهم من آلام نتيجة خطيئتي وعدم اكتراثي بما تعنيه مسيحيتي وهويتي الأرمنية لهم.

بعد أن قاطعني الجميع تقريبا، بدرجة أو بأخرى، لم أجد أمامي غير الرحيل، الرحيل عن «حلب»، مسقط رأسي، ومدينتي، التي وُلدت وعشت فيها... غريبا، ورحلت عنها حاملا غربتي معي لغربة أكبر في العراق، حيث بقيت لسنوات قليلة قبل أن أنتقل لمجتمع أكثر غرابة.... الكويت، فزادت غربتي مع زيادة أنشطتي وتحولها من حرفة فنية إلى تجارية فنية تختص بصياغة الحلي الذهبية والفضية، إلى ترفيهية وسياحية.

كانت الحرب العالمية الثانية قد شارفت على الانتهاء باستسلام ألمانيا واليابان، وخبت نارها،

ولكن بقي دخان معاركها يملأ الأجواء، يوم قررت الخروج من حلب، يوم الرحيل عن موطن غربتي الأولى.

قبلت رأس والدتي، وأخبرتها، من خلال دموعي، بأنني راحل، فلم تنطق بكلمة... كان الألم الذي سببته لها أقوى وأكبر من حبها لي، ومن غريزتها كأم. يقولون إن الأم لا تنسى أبناءها، ولكن ما رأيته من جفاء ورفض منها كان شيئا خالف كل ما كنت أسمعه أو أعرفه أو سبق وأن قرأت عنه.

في محطة الحافلات، التي ستنقلني وزوجتي سارة وابننا الرضيع «بدر» لدمشق ومنها لبغداد، حيث سأقيم وأعمل، وقفنا ننتظر الحافلة، ولم تكن هناك مقاعد على الرصيف لأرمي جسدي realpage=0013xالمنهك عليها، كما كنت متعبا نفسيا أيضا، فارتميت على إحدى حقائبنا وغفيت لنصف ساعة تقريبا قبل أن تصل أولى حافلات شركة «الفرد كتانه إخوان» المعروفة، لأقوم من إغفاءتي فزعا على صوت سائقها وهو ينادي على ركاب دمشق. وهنا باشرنا من فورنا برفع حقائبنا لظهر الحافلة. انتهيت من تلك المهمة الشاقة، ولكن قبل تحرك الحافلة لمحت والدي يترجل من عربة يجرها حصان وهو يحمل ما يشبه الصرة تحت إبطه، ورأسه مطأطئ للأرض، وكأنه يحاول إخفاء وجهه، فلا يراه أحد في ذلك الوقت والمكان والموقف. أربكني مظهره، فقد بدا أكبر من عمره بكثير. نزلت من الحافلة وذهبت إليه، رفض يدي الممدودة، واكتفى بمد يده بما يشبه الطرد، الذي لم أعرف ما يحتويه، أخذته منه، فوضع يده على كتفي، وتمتم ببضع كلمات لم أسمعها، أو ربما لم أفهمها، ونظر إليّ نظرة أخيرة، واستدار، والدموع تملأ عينيه المتعبتين، ليعود من حيث أتى، ولم أره بعدها...إلى الأبد!

أربكني الموقف، لففت الطرد ودسسته في حزام بنطالي وأشغلت نفسي بالحديث مع معاون سائق الحافلة عن مسافة الطريق وساعة الوصول المتوقعة، وعدد الاستراحات في الطريق، عدت بعدها إلى الداخل وجلست بجانب ابني الصغير وزوجتي، التي كانت الدموع تملأ مآقيها، ليس فقط لفراق أهلها ووطنها بل وأيضا لأن لا أحد من أهلها جاء لوداعها في المحطة في تلك الساعة المبكرة. حاولت التهرب من الموقف الصعب بتصنع النوم، وكنت بالفعل متعبا وبحاجة ولو لإغفاءة قصيرة، ولكن كم المشاعر realpage=0014xالمتضاربة والمتضادة التي كانت تنهش فكري في تلك اللحظة لم تسمح للنوم بالتسرب إلى عيني، وكان التفكير في مصيري وأسرتي، هنا وهناك، أقوى من أي رغبة في النوم أو الراحة النفسية. وفجأة تذكرت الطرد الذي سلمني إياه والدي، فنسيت ما أنا فيه وتوقف فجأة سماعي لصوت أنين زوجتي الخافت، وغادرني التعب تماما. أخرجت الطرد الملفوف من تحت حزامي، حيث سبق وأن وضعته، وحللت الخيوط التي حوله وفتحته فوجدت بداخله مجموعة أوراق مختلفة الألوان والأحجام مدوّن عليها كلمات بخط أبي الذي أعرفه جيدا، وبدا واضحا أنها كتبت بأقلام وألوان حبر مختلفة وعلى مراحل زمنية متباعدة.

وهذا ما قرأته في أوراق أبي.

realpage=0015x

الفصل الثاني

ابني «كالوست»

.... لا أدري إن كنت لا تزال عزيزا، أو حتى ابنا، بعد أن تسببت لنا بكل ذلك العار ثم قررت أن تتركنا وترحل، ولكن واجبي كأب أولا وكأرمني ثانيا أن أعطيك شيئا قد يعيدك يوما إلينا، ولقضيتنا. ولو لم يكن لدي شيء أقوله لما كتبت شيئا، لأنني مؤمن بمقولة إننا قبل أن نتكلم أو نكتب شيئا، فإن علينا التيقن أن ما سنقوله أو ندوّنه أفضل من الصمت.

ولدت لأبويين أرمنيين طيبين عام 1870 أو بعدها بقليل، وجاءت شقيقتي الوحيدة «آنيت» إلى الدنيا بعدي بسنوات.

نقول في الفلكلور الأرمني، قبل أن نروي أية حكاية:

سقطت يوما من السماء ثلاث تفاحات

الأولى لمن يروي الحكاية

الثانية لمن ينصت لها

والثالثة لمن يفهم مغزاها.

وأتمنى أن تحصل على تفاحتين، من قراءتك لأوراقي، لقصتي، وقصة قومنا.

هذه ليست مذكراتي الشخصية، بالرغم من أنها مليئة بما يخصني ويتعلق بي، فشخصي، بالرغم من محوريته في هذه الأوراق ليس مهما بقدر أهمية قضيتنا، وأهلنا ووطننا. كتبت ما realpage=0016xكتبت لنفسي ربما، ولما تنكرت له أنت تاليا. وكتبت ما كتبت لكي أتذكر دائما مقدار ما مررنا به من معاناة، وتشريد وقتل. وأريدك أن تقرأ ما كتبته، وما أعدت كتابته مرات ومرات، على مدى أكثر من عشرين عاما، لتفهم شيئا عنا وشيئا مني.

عندما بدأت بتدوين أفكاري كنت يومها في الثلاثين تقريبا. في البداية لم أكن أعرف لمن أكتب، ولكني كنت أعرف لماذا. فقد كان يتكرر من والدي إبداء الندم على عدم قيامه بتدوين سيرة والده، وما كان يلقي من أشعار حماسية، نسيها كلها تقريبا. وكان يروي أنه كان في شبابه فارسا

معروفا، قبل أن يلقى حتفه عندما حاول الدفاع عن أسرة فقيرة حاول البعض سلب أرضها منها. عندما قررت أنت تاليا أن تغادرنا، وتتركنا وقضيتنا، وتترك أمك وإخوتك، وحلب وراءك، شعرت بأنني كنت طوال هذه السنوات، دون أن أدري، أكتب لك. وفي ساعة تخللتها مشاعر مختلطة كثيرة، وجدت أن أفضل أو أثمن شيء يمكن أن أعطيك إياه، قبل أن تتركنا هو هذه الأوراق، بعد أن أجريت عليها ما استطعت من تعديلات لكي تكون أنت المخاطب غالبا، وستلاحظ ذلك من الشطب والتعديل الذي أجريته عليها، على عجالة.

كنت أعلم حاجتك إلى بعض المال، وكنت أنوي أن أعطيك شيئا، ولكن أمك رفضت ذلك، ربما أملا في أن تتعب من الغربة وتعود إلينا، ولا أدري ماذا أقول أو كيف أفسر تصرفها، ولكن يبدو أن الجرح الذي سببته لها أصبح غائرا في نفسيتها، ولم أستطع زحزحتها عنه، أو تغيير فكرها.

realpage=0017xستلاحظ إنني لم أتبع أي تسلسل تاريخي محدد في تدوين أوراقي هذه، ولم أرتبها على هذا الأساس، وأعتقد أن أولها ربما اختلط بآخرها.

والدك، سيروج

حلب تشرين الأول/ أكتوبر 1945

realpage=0018x

realpage=0019x

الفصل الثالث

أنا سيروج بازليان، وهذه قصتي

أنا بحاجة لأن أذكّر نفسي دائما بأصولي الأرمنية وانتمائي الكامل لأمتي، وبحاجة أكثر إلى أن أذكّر غيري ومن سيقرأ أوراقي بهذه الأمور الحيوية بالنسبة إليّ.

نحن الأرمن شعب حي نعتز بأصولنا وتراثنا، ونادرا ما تجد بيننا من يمد يده للغير. فتآزرنا معروف منذ القدم، كما عرف عنا حبنا، لا بل إجادتنا للكثير من الفنون ولأداء الأعمال اليدوية والدقيقة منها بالذات. كما اعتدنا أن نضيف شيئا لأي مكان أو مجتمع نذهب للعيش فيه.

كان والدي، سركيس بازليان، مثل كل أقرانه محبا لقومه معتزا بهويته، صادقا في انتمائه، وهو الذي زرع في قلبي عشق أرمنيتي والافتخار بها. كان أبي يقدس الأرض ويعتبرها أمنا، وبالرغم من أنه ورث مزارع عدة من جدي، وكان بإمكانه العيش من تأجيرها للغير، إلا أن عشقه للأرض دفعه للعمل في الزراعة في قريتنا الصغيرة القريبة من مدينة «عنتاب»، أو «غازي عنتاب»، كما أطلق عليها الأتراك بعد طرد قومنا منها، وهي عاصمة المحافظة، وأكبر مدن السلطنة في الجنوب.

تقع عنتاب شمال حلب، وعلى بعد أقل من مائة كيلو متر منها. كان بها دائما خليط من العرب والأتراك والأكراد والتركمان، realpage=0020xولكننا كنا نشكّل الغالبية، والأكثر غنى ونشاطا فيها. كنا نعلم أن عنتاب جزء من سوريا الكبرى، ولكن الحلفاء ألحقوها بتركيا بعد ثلاث سنوات من نشوب الحرب العظمى.

كان والدي، بخلاف ما كان سائدا بين أقرانه حينها، يجيد القراءة والكتابة. كما كان مولعا بنظم الشعر وكان يلقيه بطريقة خاصة. كان له صوت جميل يجمع أهل قريتنا والقرى المجاورة حوله كل يوم أحد بعد انتهاء القداس. كان يسمعهم في مقهى القرية القريب من البيت والكنيسة أعذب الشعر وأكثر القصص جاذبية وتشويقا. كان مولعا كثيرا بأشعار «هوفاتيس تومانيان». كما كان يقلد أشعار «دانييل فاروجيان» ويطرب لشعر «سيمانتو». وكان القس «بتروسيان» يحسد أبي على ما كان يتجمع عنده من مستمعين يفوق أحيانا رواد كنيسته. أما في أعيادنا الدينية أو الوطنية فإن الحضور في مقهى القرية يصبح شيئا فريدا، وخاصة عندما يمسك والدي آلة»الدودوك»، أو مزمار النفخ، ليسمع الجميع أنغامه الناعمة والدافئة التي تجعل الدموع تترقرق في مآقي الكثيرين، قبل أن يشارك الجميع

الرقص على أنغام الأغاني الأرمنية الشعبية. كانت له رئة عجيبة وقدرة على التعامل مع تلك الآلة التي تحتاج للنفخ بها باستمرار لتصدر أعذب الأصوات.

كان يتمتع باحترام الجميع، وكانوا يلجأون إليه عند الحاجة، وكان يقول لي إن علينا دائما أن نكون صادقين مع أنفسنا ومع من نعرف، وأننا إن قلنا الصدق فليس علينا بعدها أن نتذكر شيئا. أما من يكذب فيجب عليه أن يتذكر دائما أنه كذب.

realpage=0021xتعلمت من والدي الكثير، فقد كان شخصا حيويا ومميزا، وأراد لي أن أصبح شيئا مختلفا عن بقية أهل القرية، وأن لا أعمل في الزراعة، لهذا دفعني مبكرا للمدرسة، وكان يسهر معي كل ليلة تقريبا يساعدني في دروسي وواجباتي المنزلية. ولطرد السأم والتعب عني كان يرتجل قصصا مشوقة يسردها على مسامعي، وعرفت تاليا أنها كانت من وحي خياله الخصب. وكنت عندما أتعب من الدرس يريحني قليلا ويبدأ بقراءة صفحات من كتب قديمة كان يحتفظ بها في عليّة صالة البيت الرحبة. كانت مواضيع بعضها تاريخية وجغرافية، ولم أكن أفقه معنى كثير مما كان يقرأ، ولكني كنت استمتع بطريقة إلقائه ونبرة صوته غير مدرك حينها أن ذاكرتي كانت تتشرب ما كان يقوله، وتلتقط الكثير مما كان يقرأه. كما كان يقرأ صفحات عدة من دواوين الشعر، التي كان يحفظ الكثير من قصائدها عن ظهر قلب. وكان يستمتع كثيرا بقراءة نصوص أغان فلكلورية، وخاصة الدينية منها، والتي سبق وأن خطها بأناقة في دفتر قديم كان يحتفظ به في خزانة غرفة نومه. وكان يبدأ حديثه معي دائما، كما يفعل في مقهى القرية، بمقولة تفاحات السماء الثلاث، وكان يطلب مني أن أستمع إليه وأفهم، لكي أحصل على أكثر من تفاحة دائما. وكان يطلب مني ويكرر أن أوقفه عن الحديث أو القراءة والسؤال عن أي أمر لم أفهمه، ولكني قلما فعلت ذلك. كان يتمتع بصبر عجيب، وخيال واسع، ولا أدري من أين كان يأتي بكل ذلك الكلام، وكل تلك القصص والحكم ودروس الحياة.

realpage=0022xحاولت كثيرا أن أقوم بدور أبي في مقهى القرية، عندما كان يتغيب لسبب ما عن قداس الأحد، أو عن جلسة المقهى بعدها. كان لديّ دائما مخزون من القصص، وكان حبي للأدب كبيرا، وكنت أرتجل الأغاني، ولكن صوتي لم يكن يطرب أحدا، ولم أكن أجيد العزف على الدودوك، أو الرقص بمثل حيويته، ولكن قسما من رواد المقهى كان يصر بعد القداس على الاستماع لما كنت أرويه لهم من القصص والروايات التي كنت أقرأها، أو الأحداث التاريخية التي كنت أعرفها، أو التي سبق وأن قرأت عنها، وما أضيفه إليها، ارتجالا، من خيالي.

مرت السنوات سريعة، وتوقفت عن الدراسة، التي تعبت منها، وقررت العمل، أو الالتحاق بوظيفة ما، واستطاع أبي، ولا أعرف كيف، أن يجد لي وظيفة متواضعة في مكتب بريد عنتاب، المتهالك. كان العمل روتينيا، وبقي كذلك إلى أن تركته لكنه كان عملا حكوميا مضمون الدخل، ومريحا يسمح لي بقراءة ما كنت أجلب معي من كتب من صندوق أبي السحري. كنت أذهب في الصباح لمأمور محطة القطار لاستلام أكياس الخيش المليئة بالرسائل والطرود البريدية التي كانت ترد في الفترة المسائية من أركان السلطنة أو من خارجها، وكان الكيس غالبا خفيفا، وفي المواسم يصبح ثقيلا بعض الشيء، وأذهب به إلى مكتب البريد، وأفتح الأختام عنه، وأبدأ بعملية فرز محتوياته، ووضعها في أكوام حسب المنطقة أو الجهة المرسلة إليها، ليتم توزيعها على محال تجار المنطقة،

وبيوت المدينة والقرى المجاورة ودوائر الحكومة realpage=0023xفي عنتاب وما حولها. وكنت أضع الرسائل التي لا معرفة لي بها، أو كيفية تحديد أصحابها، وكل المواد التي لها طبيعة عسكرية، على مكتب الرئيس ليقرر لمن يرسلها. كما كنت استلم البرقيات الواردة من ضابط البرق، وأضع نصوصها المدونة باليد على أوراق خاصة في مغلفات محددة الشكل، وأدوّن عليها اسم المرسل إليه. أما البرقيات الرسمية فكنت أجمعها وأضعها تاليا في مغلف كبير على مكتب الرئيس أيضا ليتولى أمر توزيعها بمعرفته، وكنت أراه أحيانا يقطع بعضها لقطع صغيرة، قبل أن يلقمها نار المدفأة بجانبه.

مع مرور الوقت بدأت اطلع، وبشكل متزايد، على عدد من البرقيات الغريبة المضمون التي كانت ترسل من الباب العالي في الآستانة، إلى أقاليم الإمبراطورية العثمانية، ومنها عنتاب، التي كان بها معسكر كبير للجيش العثماني. كنت في بداية العشرينيات من عمري يومها، وكنت ساذجا وجاهلا بمضمون تلك البرقيات، ولكنها كانت تثير ريبتي، بالرغم من تواضع فهمي في الأمور العسكرية. ولسبب لا أعرفه، لم يحاول رئيس المكتب التركي منعي من الاطلاع على تلك الرسائل والبرقيات، ربما لأنني كنت مخلصا في عملي، وأبذل جهدا كبيرا فيه، ولم يكن عدد الأرمن في المكتب يذكر، كما لم يكن وجودنا بالنسبة إلى الأتراك يشكل هاجسا أمنيا، وغالبية قومي كانوا يفضلون الأعمال الحرة، وبالذات المهن الحرفية، بدلا من العمل في المكاتب الحكومية.

أصبحت البرقيات التي تتضمن أمورا عن مجريات الحرب العظمى التي كانت تركيا تسعى لأن تكون طرفا فيها تتزايد أعدادها realpage=0024xوتتغير طبيعتها، وما كان يرد بها من أوامر. كما تغيرت لغة ولهجة البرقيات مع تقدم الوقت، خاصة تلك التي كانت تطالب آمري القطعات العسكرية والسلطات المدنية تزويد الحكومة العلية بكشوف عن أعداد الأرمن في كل مدينة وقرية، وعن أوضاعهم المعيشية وأحوالهم المادية. كما كانت برقيات أخرى تطالب بحصر ممتلكات ومؤسسات غير المسلمين التجارية، بشكل عام. كما أصبحت ترد برقيات تكشف حقيقة نوايا السلطات العثمانية المبيتة ضد الأرمن، والمسيحيين بشكل عام، خاصة بعد أن بدأ تداول أنباء عن قيام أفراد ومجموعات من الشباب الأرمن المسلحين، من مواطني السلطنة، بالهرب والانضمام للجيش الروسي الذي كان حينها في وضع الغازي للأراضي العثمانية.

كنت أنقل مضامين البرقيات، حتى تلك التي كانت بالغة السرية، والتي كان رئيس المكتب التركي يستلمها شخصيا مني، ويحتفظ بها في درج مكتبه، أنقلها لوالدي، ومنها تلك البرقية التي طالبت بحصر أعداد غير المسلمين، دون استثناء، والأخرى التي كانت أكثر تحديدا، والتي تعلقت بالتركيز على أوضاع الأرمن، دون غيرهم، من مواطني الدولة. وفي يوم قام رئيس المكتب باستدعائي وطلب مني التوقف باقتضاب عدم القدوم للعمل اعتبارا من يوم غد، وسلمني ظرفا سبق استخدامه، بداخله مبلغ من المال يمثل راتب نصف شهر مع مبلغ تعويض بسيط، وأعاد الطلب مني بعدم العودة للعمل ثانية. شعرت حينها بالخوف من المصير الذي ينتظرنا، وإن الأمر أصبح ينذر بالخطر على كامل وضعنا.

realpage=0025xكان أبي يأخذني أحيانا معه إلى سوق عنتاب لبيع بعض محاصيله من التفاح، وكان يحلو له بعد الانتهاء من عملية البيع الجلوس في محل العم «سافين» الذي كان يمتلك

ورشة صغيرة لصنع صناديق حفظ الفواكه وشحنها لمدن السلطنة الأخرى. كانت قهوة العم سافين مميزة برائحتها الطيبة، حيث كان يقوم بتحضيرها بنفسه، وكان يحضر معها غليون تبغ خاص لوالدي. كنا جميعا نخاطبه بالعم، حتى والدي، فقد كان رجلا كبيرا في السن وكريما، ويتقن ما يؤديه من عمل. وكان على اطلاع واسع بمجريات الأحداث، أو هكذا كان يبدو لي. فقد كان يروي الكثير من الأحداث السياسية التي لم يكن يعرف والدي عنها شيئا لأنه كان غارقا، بسعادة، في عالمه الخاص بالشعر والأدب. كان العم سافين يقرأ ما تصل ليده من مطبوعات أو منشورات ترد المنطقة من إسطنبول، وكان يعتقد باحتمال وقوع حرب مخيفة في المنطقة بين الإمبراطورية النمساوية وبين مملكة صربيا، بعد أن اغتال صربي ولي عهد النمسا. كان والدي والعم سافين يتشاركان في الكثير من الآراء، وفي الشعور بالخوف على الوضع السياسي في السلطنة، وبالذات على وضعنا كأرمن.

كان والدي يخبره بما كنت أنقل له من نصوص برقيات الباب العالي لمفتشيها في المنطقة، وكانا يتبادلان حينها النظرات دون الاستطراد أكثر أو التعليق على الأخبار.

كان العم سافين مهتما كثيرا بالخلافات التي كانت تعصف بقيادة السلطنة وبطموحات الثلاثي «أنور باشا» و«طلعت باشا» realpage=0026xو«خليل باشا» قبل أن ينضم إليهم «جمال باشا» وجميعهم من حزب الاتحاد والترقي، والذين انتقلت لهم تاليا مقاليد الحكم بوجود السلطان «محمد رشاد» الذي عرف الجميع أنه أصبح بلا سلطة فعلية.

ومن جلساتي وأبي مع العم سافين سمعت لأول مرة بأنباء تعرض الأرمن في إسطنبول للمضايقات ثم للاختفاء والاعتقال القسري ومصادرة أملاك وجهاء الأرمن وأغنيائهم، وخاصة الذين شاركوا في الاحتجاجات العلنية على المعاملة المتعسفة لقومهم دون مبرر. وتبع كل ذلك عمليات قتل وحشية. وبالرغم من فضولي ورغبتي في معرفة المزيد عن عمليات التطهير العرقي تلك إلا أن والدي كان يتحفظ في الحديث وأحيانا يغير مجراه.

realpage=0027x

الفصل الرابع

الطرد من الإمبراطورية

كانت قريتنا «نادان» قطعة من تاريخ المنطقة القديم، بكنيستها العتيقة وديرها والآثار العديدة التي تدل على أنها كانت يوما مدينة نشطة حصينة يحيط بها سور حجري مرتفع، ولكنه تآكل مع الوقت، وساهم أهالي المنطقة والقرى المجاورة في القضاء عليه وعلى بقية آثار المدينة باستخدام حجارتها، ومواد وصخور قلاعها القديمة في بناء بيوتهم وتحديد أرصفة وطرقات قراهم. وبالرغم من قدم ما في قبو الكنيسة من مراجع إلا أنه ليس فيها أي ذكر لما حدث لتلك المدينة التي كانت يوما عامرة لوقوعها على مفترق طرق، وكيف تحولت بتاريخها وحصنها المنيع لقرية ضعيفة يعمل غالبية سكانها، ومن هم حولها، في الزراعة، وخاصة محصول التفاح الأخضر.

تقع «نادان» تحت سفح جبل أقرب منه للتلة. وتحيط بالقرية مزارع التفاح الشاسعة. وبسبب مواجهتها للشمال فإن طقسها بارد طوال العام، وهي عرضة للعواصف والرياح العاتية في فصل الشتاء.

كانت القرية تتبع عنتاب إداريا، ولم تكن تبعد عنها بأكثر من بضعة كيلومترات، وكانت المسافة أكثر من ذلك ولكنها ضاقت مع زيادة البناء وأعداد السكان والنازحين للمدينة من القرى المجاورة.

كنت أعمل، كما سبق وأن ذكرت، في مكتب بريد المدينة، realpage=0028xوكنت سعيدا بعملي، إلى أن بدأت برقيات الحكومة المركزية ترد على المركز فتغيرت الأمور بسرعة كبيرة، مع تغير طبيعة ما كان يرد في تلك البرقيات من تعليمات عن تحركات عسكرية لأغراض أمنية أو قتالية تاليا. كما أصبحت تصدر تعليمات وأوامر استقصاء وبحث وقبض على شخصيات معينة وإرسالهم مخفورين للآستانة. كنت أنقل تلك الأخبار لوالدي، وبالرغم من أنه لم يكن يعلّق عليها، كما ذكرت، إلا إنني تاليا أصبحت أرى علامات الخوف بادية عليه، ولكنه لم يكن يخبرني بما كان يشعر به حقيقة، إلى أن فاض الكيل به يوما، وكان ذلك بعد يومين من طردي من عملي حيث أمسك بيدي بعد تناول العشاء، وأخذني إلى غرفة نومه، التي نادرا ما أدخلها، منذ أن بلغت، وأجلسني على طرف السرير، وبقي هو واقفا، وقال دون مقدمات: اسمعني جيدا يا سيروج. إن علينا يا بني أن نغادر نادان وأن نتجه نحو حلب في سوريا، ولو مؤقتا، إلى أن تهدأ الأحوال. ولكن قبل ذلك عليّ أن أحضرك للزواج! ربما لاحظ أبي طرف ابتسامة على وجهي، وكاد أن يبتسم معي، ولكنه سرعان ما كبت مشاعره، واستطرد

قائلا بجدية واضحة، بأنه سيسافر وأمي فجر يوم غد لقرية «آرتانا»، حيث سيقيمان هناك في بيت قريبنا «آغوب»، وسيطلبان يد ابنته «هرمين» زوجة لي.

لم يفاجئني كلامه، فقد سبق وان كلمتني والدتي من قبل عن هذا المشروع أو النية، ولم أبدِ حينها أي قبول أو اعتراض. ما لم يعرفه والدي أنني سبق وأن اختليت بـ «هرمين» أكثر من مرة، عندما زارنا والدها العم آغوب قبل عام تقريبا. كنا نلتقي عند نهر realpage=0029xالقرية الصغير. لم نكن نتكلم كثيرا، بل نكتفي بتبادل القبل الحميمة والساخنة، ونترك العنان لأيدينا لترحل كما تريد. تواعدنا على أن نكون مخلصين لبعض، وبالتالي داخلني سرور عندما فاتحني أبي بفكرة الزواج، ولكي أبعد كل شك لديه عن سابق علاقتي بهرمين، أو تلهفي على الاقتران بها، أبديت مخاوفي له من ترك كل شيء وراءنا، خاصة بعد أن أصبحت بلا عمل ولا دخل، فوق ما سيترتب عليه مشروع الزواج من التزامات مادية قد لا نستطيع تحملها، وأين سنذهب ونتجه والمنطقة، لمئات الأميال شمالا وشرقا وغربا، تابعة لنفس القوة التي نريد الهرب منها. ولكن والدي، بصوته الطيب والحازم في نبرته، قال بأنه سيتكفل بكل شيء، فقد وفر ما يكفي من المال للاهتمام بنا جميعا، وأنه باع قطعة أرض قبل فترة قصيرة لمالك عقار شركسي في المنطقة. وقال إن علينا أن نبتعد، قدر الإمكان عن المدن التركية الكبرى، ولو مؤقتا، وإننا سنعود يوما لبيتنا، وإننا كلما بعدنا عنها، كلما أصبحت سلطة الدولة أقل سطوة وقدرة على الفتك بنا.

لا أدري ما الذي دفعه لأن يقف فجأة أمامي بطوله الفارع ويمسك كتفي بيديه القويتين، ويحدق إلى عيني، ربما لأنه اعتقد بعدم رغبتي في ترك نادان، والرحيل ولو مؤقتا لحلب، وقال لي بحزم لم أعتده منه، بأن الوقت الآن لا يزال نسبيا في صالحنا، وقد يتغير سريعا، وعلينا أن نتحرك فورا، وإن قرار الرحيل قد اتُخذ، وعليّ اللحاق به مع شقيقتي «آنيت» معي. وأضاف قائلا بأن السلطات التركية في الاستانة أو إسطنبول قامت في 24 نيسان / realpage=0030xابريل 1915 بتحرك وحشي ضد جميع المفكرين والمثقفين الأرمن وضد تجارنا وكبار حرفيينا، وأن أسراً كثيرة من كبار أرمن السلطنة قد اختفوا ولا يعرف أحد شيئا عن مصيرهم، وأن أخبارا وردت عن وقوع مذابح مرعبة للكثير من الأرمن واستمرار مصادرة أملاك الكثيرين منهم دون تفريق بين موالين أو معارضين. وأخبرني بأن قانون التهجير قد صدر، وقد لا يطول الوقت قبل أن يصلنا، ومن الضروري أن نتحرك الآن. وقال إن رحيلنا إلى حلب قد لا يكون مؤقتا، فهو لا يعرف متى سنعود، إن عدنا.

عرفت بعدها، ونحن في حلب أن المذابح والتصفيات العرقية التي اقترفت بحق أرمن أبرياء هي جريمة إبادة لا شك فيها. فقد قام الجيش العثماني، وعصابات من غير الأتراك، بقتل وتشريد مئات آلاف الأرمن، وإجبارهم على ترك قراهم وقرى آبائهم وأجدادهم التي عاشوا فيها لقرون طويلة، ودفع من لم يقتل منهم للفرار باتجاه البراري القاحلة والباردة، لمواجهة مصيرهم بالموت جوعا أو عطشا، دون كساء، ولا حماية، معرضين أنفسهم لمختلف مخاطر الطريق من سلب ونهب وخطف من رجال العصابات وتجار الرقيق، وهكذا فقدت غالبية أسرنا فتياتها، ومن بقي منهن كان مصيرهن القتل في عمليات قتل جماعية عشوائية، أمام أعين آبائهن وأمهاتهن. كما تعرضت الكثير من الفتيات والنساء لعمليات اغتصاب واعتداء جنسي، كانت أحيانا جماعية، قام بها جنود ورعاع ورجال عصابات ملثمون غير معروفي الهوية، بهدف إلقاء الرعب في قلوب المترددين في المغادرة، والهرب من

الدولة، ووقعت كل realpage=0031xتلك الجرائم تحت غطاء دخان معارك الحرب العظمى، التي لم تبقِ شيئا دون أن تحطمه وتحرقه. وهكذا أصبح يوم الرابع والعشرين من نيسان أبريل 1915 يوما لا يُنسى في الذاكرة الأرمنية، وسيبقى كذلك إلى الأبد.

سلمني والدي ورقة تضمنت قائمة بما يجب عليّ القيام به بعد مغادرته في فجر اليوم التالي. لم أعلّق شيئا على ما قال، فقد كان الموقف رهيبا، فالتزمت الصمت، ولكني كنت أشعر بالحيرة حقا فقد محا كلامه الخطير كل ما كنت أشعر به من شوق لهرمين، وكنت بالفعل في حيرة من أمري مشككا في ما سنقدم عليه، ولكن لم يكن أمامي غير القيام بما أمرني به.

realpage=0032x

realpage=0033x

الفصل الخامس

الصباح التعيس

استيقظت مبكرا في ذلك الصباح الذي غادر فيه والدينا البيت فجرا، وتناولت آنية الإفطار الذي سبق وأن حضرته أمي لنا مسبقا، وخرجت بعدها لأكنس أمام البيت ما تخلف من آثار عاصفة الليلة السابقة.

كان بيتنا الفسيح والعتيق يطل على الساحة الرئيسية للقرية، ولم يكن يبعد كثيرا عن الكنيسة والمقهى. كان صباحا باردا جدا، وستبقى أحداثه عالقة في ذاكرتي ما بقيت حيا. أجبرتني البرودة الشديدة في الخارج لأن أعود للداخل وأضع قلنسوة الصوف السميكة على رأسي. كان عليّ تنظيف المنطقة حول البيت تماما وتغطية بعض المعدات، وإغلاق أبواب الزريبة الخلفية، ونقلها وعلفها لزريبة جارنا «آرتين»، ووضع ما يكفي من طعام للدواجن قبل التوجه للحقل لإنهاء ما طلب والدي مني القيام به، ومحاسبة العمال. شددت غطاء رأسي لما تحت أذني، وأمسكت بالمكنسة الكبيرة، ولكن يدي اليمنى تجمدت على العصاة لسماع صوت حوافر جياد على صخور الطريق الرئيسية، وهو صوت ينذر عادة بقدوم جند السلطة العثمانية. أسندت طرف المكنسة على الحائط، وأعادني الخوف لداخل البيت، وأحكمت إغلاق الباب خلفي، وأسرعت لنافذة صغيرة مطلة على الساحة، وأزحت طرف الستارة realpage=0034xمن عليها لأراقب ما يجري في الخارج.

توقف جنود الفرقة الصغيرة التي لم يكن يزيد عدد أفرادها عن العشرة في وسط الساحة، وترجل من كان في المقدمة، وربما كان كبيرهم عن فرسه، وسار نحو كنيسة القرية ودخلها وعاد بعد قليل بصحبة القس الذي يبدو أنه كان نائما.

منظر الجنود كان مخيفا، بالرغم من قلتهم، بملابسهم الداكنة ولحاهم الكثة وشواربهم الطويلة وأسلحتهم الظاهرة والجاهزة للاستخدام في أي لحظة. بدأت أجراس كنيسة القرية بالرنين فجأة بصوت لم يعتد عليه السكان في مثل هذا الوقت من الصباح. كان رنينا صاخبا وغير منتظم، ولا يشبه ما اعتدنا سماعه في أيام الآحاد أو عند الإعلان عن وفاة أحد سكان القرية، أو ما جاورها.

دفعت أصوات الأجراس الأهالي للخروج تباعا من بيوتهم، وكنت أحدهم، وزاد التجمع عددا بعد أن أطلق قائد الفرقة بضعة عيارات نارية من بندقيته في الهواء هزت هدوء القرية وسلامها في

ساعات الصباح المبكرة تلك. وعندما شعر الضابط بأن الغالبية قد حضرت أمامه، إن لم يكن الكل، طلب منهم بالتركية، التي لم يكن يتكلم بها غالبية سكان القرية، وكنت أعرفها، أن ينصتوا لكلامه جيدا. هنا شعرت بخطورة الوضع وإن عليّ الخروج والقيام بمهمة ترجمة أقوال الضابط، التي بدت من سحنته المرعبة، أنه سيقول كلاما خطيرا جدا. تقدمت بخطوات مترددة نحوه وأنا أؤشر بيدي طالبا منه الانتظار لأقوم بمهمة الترجمة، وما أن اقتربت منه حتى أمسك بذراعي وجرني إلى جانبه، بحركة تنم عن صلف realpage=0035xواضح، واستطرد قائلا، بصوت أقرب للصراخ منه لأي شيء آخر: إننا لسنا هنا لجمع الضرائب، أو لأخذ أبنائكم للعمل في خدمة جيش السلطنة، ثم سكت. وهنا سرت همهمة بين الحضور وانتاب البعض شعور بالارتياح النسبي، وغمر البعض الآخر فرح مشبوب بحذر كشفته نظراتهم المريبة بعضهم إلى بعض، مع كتمان البعض الآخر لسخريتهم مما سمعوا، فهم لم يعتادوا منهم القدوم لغير هذه الأمرين السيئين. عاد الضابط للصراخ، بعد سكوت قصير استمر وكأنه دهر ليقول: ولكننا أتينا لنخبركم بأننا نريد القرية خالية تماما من سكانها مع ظهر يوم غد. وأن تتركوها جميعا وتتجهوا بهذا الاتجاه، ورفع ذراعه باتجاه الجنوب، وليس لأي اتجاه آخر، فكل الطرق والاتجاهات الأخرى ستكون مغلقة أمامكم. ومن يبقى في بيته بعد ظهر يوم غد، أو يتجه لأي اتجاه آخر، سيكون القتل مصيره، ولن تكون هناك رحمة ولن تقبل أية استثناءات.

أنهى الضابط كلامه، ولم ينتظر الاستماع لتساؤلات البعض وتوسلاتهم، وامتطى ظهر جواده وما أن استوى عليه حتى تذكر شيئا فزأر بصوت مرعب قائلا، عليكم ترك كل دوابكم وماشيتكم، والمغادرة مشيا، فهذه أملاك السلطنة، وأنتم ليسوا منها.

تركنا الضابط وجنده غارقين في قلق وصمت عميقين، وشعور بالعجز وقلة الحيلة يلفنا جميعا ويضغط على أنفاسنا ولا من مجيب لتساؤلاتنا، وما هي إلا ثوان حتى ارتفعت الهمهمات لتتحول لنحيب ثم صوت بكاء يقطع القلب، وعاد الجميع لبيوتهم مطأطئي الرؤوس، كل يفكر في المصير الأسود الذي ينتظره، realpage=0036xوخلال لحظات خلت الساحة تماما من كل من كان فيها، فلا مشاة ولا محال مفتوحة، ولا رواد مقهى، ولا شيء أبدا وكأن سكان القرية قد هجروها فجأة أو ماتوا جميعا في حادثة موت صامتة.

عدت للبيت لأجد «آنيت» الصغيرة تطالعني بعينين متسائلتين ومليئتين بالدموع، فطمأنتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وبالرغم من أنها مسحت دموعها بظاهر كفيها، إلا أن القلق بقي باديا عليها.

أصبت بالارتباك، غير عالم بما عليّ القيام به. كنت على يقين بأن هؤلاء الأتراك سيقتلون حتما كل من يقف في طريقهم أو يخالف تعليماتهم. وكانت فكرة ترك البيت والاتجاه لحلب أمرا يصعب التفكير فيه، فكيف بتنفيذه. كيف يمكنني الانتقال والعيش في بلد جديد غريب وبعيد، وأنا لا أعرف حرفة ولا صنعة. تذكرت في تلك اللحظة والدتي ووالدي اللذين تركا القرية فجر اليوم، واللذين ربما لم يصلا لوجهتهما بعد، وكيف سيعودان للقرية، إن لم يلقيا القتل على أيدي هؤلاء الجنود، عندما يكتشفان بعد يومين إنني لم ألحق بهما، هذا إذا لم تكن أنباء التهجير قد وصلتهما وشملتهما أيضا؟ ماذا سيكون مصيرهما وما سيصيبهما من هلع علينا؟ أحسست برجفة قوية تجتاحني، وأنا سارح في

أفكاري السوداء هذه، وأتخيل وجه أمي وهي تفكّر فينا، وفي ما أصابنا.

قمت بدون وعي مني أدور في فناء البيت الواسع، الذي أصبح فجأة صغيرا، شابكا كلتا يدي خلف ظهري، كما كان يفعل أبي عندما كان يريد اتخاذ قرار في أمر هام، وآنيت تنظر إليّ بصمت وفي عينيها خوف واضح، وهي تتابع دوراني في الفناء بقلق بالغ لا تعرف حقيقة realpage=0037x ما يحدث، وما يدور في بالي، وما عليها القيام به. بدا واضحا بعد تفكير لم يطل كثيرا أن خياراتي محدودة جدا، وأن ليس أمامي غير مغادرة البيت قبل ساعات من ظهر يوم غد، الموعد الذي حدده الضابط التركي لنا، فأنا أعرف جيدا عقليات هؤلاء الأتراك الذي سبق وأن عملت معهم، وأعرف أن قائد تلك الفرقة أو غيره لن يتردد في تنفيذ تهديده وقتل كل من يخالف تعليماته أو يتخلف عن المغادرة ولا يتجه جنوبا، للمجهول. وقلت لنفسي بأن هذا ما سيفعله سكان كل قرية سيصلها الخبر اليوم، بما في ذلك قرية قريبنا آغوب، حيث أبي وأمي، وهرمين الجميلة التي لا يبرح طيفها مغارة مخيلتي، ولكني طمأنت نفسي بأن الجميع سيتجهون جنوبا، وأنهما كغيرهما سيغادران جميعا باتجاه الجنوب، فلن يترك الأتراك لهما أبدا فرصة البقاء أو العودة لقريتنا، وليس أمام الجميع غير الاتجاه جنوبا، وإننا حتما سنلتقي بهما، في مكان ما جنوبا، أو هذا ما كنت أمني النفس به.

أحضرت ما يشبه حقيبة السفر وبضعة أكياس من القماش، ووضعت فيها بعض ملابسي وملابس آنيت الضرورية، ودسست بينها كل ما كان في المطبخ من خبز ولحوم مقددة، وبيض مسلوق. ووضعتها إلى جانب باب البيت، وخرجت لأستفسر من جارنا «آرتين» عن قراره وعما سيفعله بشأن البقاء أو الرحيل، فوجدته في أسوأ حال، كما توقعت. تبين من حديثي معه أن جميع أهل القرية تقريبا قرروا عقد لقاء في المقهى في المساء لمناقشة الوضع realpage=0038x واتخاذ قرار بما عليهم القيام به في ذلك الوضع المأساوي، إما الرحيل قبل العاشرة صباحا، أو البقاء ومواجهة المصير المجهول.

من شدة خوفي وارتباكي، أخبرت الجار، وهو شريك أبي في بيع محاصيل حقليهما، بأنني لن أكون حاضرا اجتماع القرية. وانني سأقبل بما يتخذه هو من قرار. فإن قرر المغادرة فسأغادر معه. وقلت له إنني سأحاول أن أنام، وأن أجهز نفسي وأحزم أمتعتي، ففي الغالب سيقرر الجميع ترك القرية والنفاذ بأرواحهم، فإن قرروا ذلك فما عليه غير إيقاظي في صباح اليوم التالي من النوم لأغادر معهم، وسأكون على الطريق خلال بضع دقائق.

عدت للداخل واجما لا أعرف ما عليّ القيام به أو فعله، وأصبحت أدير نظري بمحتويات البيت وبذكريات أبي وأمي وبقطع السجاد وبمفارشنا وأواني المطبخ وزاويتي الأثيرة بالقرب من المدفأة وكتب أبي وكراساته ومخطوطات أشعاره، وأقلامه التي كان يخط بها أشعاره، وكرسيه وطاولته الخشبية التي صنعها لنفسه من خشب شجرة السنديان التي عجزت وحان أوان الاستفادة من جيد خشبها، وكل الأشياء الأثيرة الأخرى التي كانت تعني لي وله الكثير، وهنا تغلب الموقف الصعب عليّ وأصبحت أجهش بالبكاء غير مدرك أن «آنيت» كانت غير بعيدة عني وترقبني والدموع تختلط بمشاعر الرعب في عينيها. أمسكت بوجهها البريء المخضب بالدموع بيدي وقلت لها إن علينا ترك بيتنا واللحاق بأبي وأمي غدا، فقاطعتني قائلة إنهما طلبا أن نفعل ذلك بعد يومين، وليس غدا، وهنا

أسقط في يدي وقررت أن لا أخفي عنها شيئا، وشرحت realpage=0039xلها الوضع وإن علينا ترك كل شيء خلفنا، حتى بابا وماما، والرحيل صباح اليوم التالي باتجاه الجنوب. وقلت لها إننا سنلتقي بهما في حلب، وهذا وعد مني. لم تفهم شيئا مما قلته فشرحت لها أكثر فزاد قلقها أكثر.

realpage=0040x

realpage=0041x

الفصل السادس

تل أبيض

فتحت عينيّ وخيوط دقيقة من أشعة الشمس تملأ الغرفة الصغيرة التي وجدت نفسي أحدق إلى سقفها. كان شكله غريبا لم أره من قبل. كان محمولا على عوارض خشبية سوداء، تتعاكس مع قطع خشبية أخرى ربما كانت يوما بيضاء. وبصعوبة التفت يمينا وشمالا فلم أجد في الغرفة أية قطع أثاث أو مفروشات تدل على هوية المكان الذي كنت فيه، لا شيء غير حوائط رمادية جرداء، وبضع شموع رخيصة ذاوية ومطفأة موضوعة على كرسي خشبي في إحدى زوايا الغرفة.

كنت نائما على فراش ملقى على سجادة أرضية قديمة، ورائحة عرق نفاذة تملأ الفراش والمخدة التي كنت أضع رأسي عليها. أشعة الشمس التي كانت تخترق شقوق الباب المتهالك هي التي كانت تنير أجزاء الغرفة من حولي.

أزحت اللحاف عني، وحاولت القيام أو الجلوس، ولكني لم أقوَ على ذلك، فقد شعرت بأن عظام صدري وقدميّ تؤلمني كثيراً وكأنني تعرضت للضرب بعصا غليظة على صدري وفخذيّ وقدميّ. ارتميت ثانية على الفراش الصلب والرطب، ولكني لم أستطع البقاء على ذلك الوضع طويلا، فالفضول، ووضعي الغريب في تلك الغرفة، والجلبة في الخارج دفعتني جميعها لأن أتحامل realpage=0042xعلى نفسي وأنسى آلامي وأقف على قدميّ. لم أستطع الوقوف طويلا، فقررت السير على أربع باتجاه باب الغرف وهناك اتكأت بكل قوتي على بروازه الخشبي الضخم، ونجحت بصعوبة بالغة في الوقوف ودفعت الباب برأسي للخارج فأصدر صريرا لفت نظر وانتباه كل من كان في فناء البيت ... الغريب. نظرت إلى وجوه من كانوا هناك فلم أشاهد بينهم من أعرف، فزاد استغرابي وقلقي من وضعي، وهنا أقبل نحوي رجل كبير في السن مادا يده مرحبا وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه الطيب، وكان من الصعب رؤية شفتيه بسبب كثافة شاربه الأبيض، وساعدني في التغلب على آلامي والوقوف ومن ثم السير معه، فاتكأت عليه وسار بي خطوات، وأجلسني على ما يشبه الجرن موضوع في طرف الحوش، أو الفناء. خاطبني بالعربية، كما استنتجت، وهو يشير بيده طالبا مني الجلوس، فهززت رأسي، وأشرت بيدي بما يعني عدم فهمي لما يقول، وهنا رحّب بي بالتركية، وهو يذكر اسمي، فأحسست بالاطمئنان قليلا، ومددت يدي المرهقة له، وقلت له بالتركية إنني لا أعرف العربية، فهز رأسه معتذرا، بأن لا بأس في ذلك فهو يتكلم التركية أيضا.

سألته عمن يكون وأين أنا، وبيت من هذا؟ فقال إنه من أهالي قرية «تل أبيض» ويعمل في مصنع عصارة زيتون القرية، وهذا بيته الذي يعيش فيه وزوجته وأن لا أبناء لهما. وقال لي إنني كنت صاحب حظ كبير، فقد أصبت بحمى قوية بعد أيام من مغادرتنا أو طردنا من قريتنا، وأنني عندما أحضرت لهذا البيت كنت بين realpage=0043xالحياة والموت وكنت أهذي طوال الوقت، ولولا هذه العجوز – وأشار بيده لامرأة كانت تجلس أمام تنور مشتعل، وهي تبتسم لي بحنان، وفمها خال من الأسنان – لكنت الآن في عداد الموتى، فهي التي اعتنت بك، وعاملتك كابنها، وسهرت ليالي عند رأسك، وأنت تهذي، محاولة تخفيف آثار الحمى عنك. كما إن عليك ديناً لجاركم «أرتين» الذي رفض أن يتركك تموت في الطريق، كما مات غالبية من كان معكم في القافلة التي تركت قريتكم قبل عشرة أيام، وقام بجرك على قطعتي خشب لمسافة طويلة ليصل بك إلينا، ولا أدري حقيقة لم فعل هذا الشيء معك، فربما كان عملا أخرق أو بطوليا، أو ربما لما بينكما من مودة، ولكنه كان في جميع الأحوال عملا صعب التصديق في تلك الظروف فقد كاد أن يلقى حتفه من الإعياء ويميتك معه.

شعرت بألم في وجنتي فوضعت يدي عليها فازداد الألم حدة، ووجدت على يدي وملابسي آثار دماء تجمدت منذ فترة، ومع اشتداد الألم وصوت المختار وهو يخبرني بما حدث، بدأت باستعادة شيء من أحداث الأيام الماضية، والتي تداعت تباعا، وجعلتني أشعر بالرعب والحزن الشديدين مما حصل.

تذكرت كيف تركنا القرية قبل ساعات قليلة من موعد الإنذار، وكيف اتجهنا سيرا على الأقدام بين الحقول والساحات الترابية المكشوفة باتجاه سوريا. لم يكن بيننا من كان يعرف الطريق بصورة جيدة، ولكن ابن عم جارنا «أرتين» كانت لديه خبرة بسيطة، وكان هو قائد القافلة.

realpage=0044xتذكرت كيف بدا الطريق أكثر وعورة مما كنت أعتقد، ومع هذا لم أفكر في التوقف أبدا، فقد كنا جميعا في كامل قوانا ورغبتنا في الابتعاد عن القرية وعن كل أماكن تواجد الجنود الأتراك، وعندما حل المساء حل التعب والجوع معه، وكان علينا اختيار مكان نلجأ له قبل أن يلف الظلام الدامس المنطقة. بعد بحث قصير اهتدينا إلى مغارة صغيرة بالكاد تكفي لإيوائنا جميعا، وقررنا المبيت فيها.

واصلنا المسير فجر اليوم التالي ولم نكن راضين بما قطعناه من مسافة، وكانت بالفعل قصيرة، فقد كان تحركنا بطيئا بسبب ما كان معنا من أطفال وكبار في السن. قررنا تشكيل فريق من ثلاثة رجال يكون دورهم القيادة وعلى البقية اتباعهم. وكان أول قرارات اللجنة الجديدة هو الطلب من الجميع التخلص من الحقائب والصرار وكل ما نحمل من أكياس، فأمامنا تلال وهضاب يصعب تجنبها وعلينا تسلقها، وهذا غير ممكن بما نحمل، وهكذا قمنا بتفريغ الحقائب والأكياس من الملابس الثقيلة وارتداء كل ما كان بإمكاننا ارتداءه منها، فأصبحت أشكالنا مدعاة للضحك ونحن بتلك الحالة المزرية من الخوف والتعب، وكانت غالبية الضحكات هستيرية ودامعة، وكانت لحظات يصعب نسيانها بسبب كل مشاعر الحيرة واليأس والخوف الشديد من المجهول، والأمل بمصير أفضل، والتي اختلط بعضها ببعض داخلنا.

كما قررت اللجنة الاكتفاء بحمل أكياس الطعام فقط، ودسسنا ما كان لدينا من نقود وحلي ذهبية أو فضية في جيوب ملابسنا، وفي أماكن متفرقة ومتعددة. وتعاونا بعدها على حفر حفرة خلف realpage=0045xالمغارة، وفي منطقة مميزة بتضاريسها وأشجارها ودفنا حقائبنا وكل حاجياتنا التي لم نستطع أخذها معنا فيها، على أمل العودة لها يوما، عندما نعود لقريتنا...ووطننا.

وتذكرت كيف واصلنا السير، وكيف واجهنا أولى كوارث الطريق في اليوم الرابع عندما سقطت زوجة جارنا الآخر، العجوز «هوسيب» من الإعياء الشديد أمامه، ورفضت بإصرار غريب أن تخطو خطوة واحدة. جلس هوسيب على الأرض معها وأخذ يبكي يأسا من وضعه، فلا هو قادر على تركها هناك، بعد عشرة عمر امتدت لنصف قرن، كما كان يهمس بأذنها، ولا هو قادر على منعنا من المسير وتركه لمصيره معها.

جلسنا حولهما لأكثر من ساعة لعل صحة العجوز تتحسن قليلا ويكون بإمكانها المسير، إلا أن إعياءها كان يزداد وتنفسها يضيق أكثر. وتوسل لنا هوسيب أن نتركه لحاله، فهو سيبقى معها، وحالما تتحسن حالتها وتستطيع السير فإنه سيحاول اللحاق بنا أو العودة لقريته وبيته ودفء فراشهما، وليحدث بعدها ما يحدث، فإيمانه بالله كبير.

اجتمعت اللجنة للتشاور في ما يجب القيام به، وعادت بعد لحظات بعد أن استقر أمرها على مواصلة السير فحياة الجميع في خطر، وخاصة الأطفال، كما أن ما لدينا من طعام وماء بالكاد يكفينا. وياليتني بقيت وآنيت معه، لربما لم نواجه ذلك المصير الذي كان بانتظارنا وتلك المصيبة التي حلت بنا.

تذكرت كيف غيّرنا خطتنا في اليوم الرابع، وأصبحنا نسير realpage=0046xليلا وننام نهارا، خوفا من عيون الجنود الأتراك واللصوص ورجال العصابات وقطاع الطرق، وما أصبحنا نراه في الطريق من مشانق منصوبة وحرائق وأطراف بشرية مرمية هنا وهنالك. ولكن أسوأ أحلامنا تحققت عندما هجمت علينا عصابة تجار رقيق في تلك الليلة، وكدت أبكي بصوت عال عندما استعدت أحداث تلك الليلة، ومقدار العار الذي تعرضنا له وحجم الأذى الذي أصابنا، وكيف أصبحنا بين يوم وليلة سبياً لدى كل أفاق لئيم يتاجر بنا بعد أن تخلت عنا دولتنا، وأصبحت أرواحنا وأعراضنا، بعد أرضنا وممتلكاتنا، عرضة للنهب والنهش والسلب.

كانت ليلة مرعبة بدأت عندما واصلنا المسير المضني في مساء اليوم الرابع، وكنا سعيدي الحظ، أو هكذا كنا نعتقد، بعد أن بدأت درجات الحرارة بالارتفاع، ولم تكن الليلة بمثل برودة ما قبلها من أيام، عندما كان يستحيل فيها السير ليلا، خاصة وأنه لم يكن لدينا ما يحمينا غير ما كنا نرتديه من ملابس ثقيلة.

واصلنا سيرنا البطيء، بسبب وجود الأطفال وكبار السن بيننا، وفي منتصف الطريق قررنا أخذ قسط من الراحة، بعد أن أتعب المسير الكثيرين منا، وما شعرنا به من أننا أصبحنا قريبين من الحدود السورية، حيث الوضع الأمني أفضل. وجد دليلنا مغارة تقع في قلب تلة عالية قليلا، وطلب منا التحامل مع أنفسنا والوصول لها، ومواصلة السير في اليوم التالي دون توقف حتى نصل لأقرب مدينة

أو قرية سورية، كما أخبرنا من كان أفضلنا خبرة في الطريق، التي كنا نسير بمحاذاتها، ولكن ليس عليها.

realpage=0047xتبين تاليا أن قرار توقفنا ومبيتنا في تلك المغارة كان قاتلا. ففي ساعات الصباح الأولى هجم علينا أربعة رجال ملثمين، ونحن نائمون في المغارة، وهم يرتدون ملابس ثقيلة كثيفة داكنة الألوان يمتطون خيولا. وأتذكر أن اثنين منهما فقط ترجلا عن حصانيهما ودخلا المغارة، ومنعنا لثامهم وصمتهم من معرفة أو تحديد هوياتهم أو من أين أتوا، فربما كانوا عربا أو أتراكا أو من أكراد المنطقة، ووصل بي الشك حتى في أن يكونوا منا، مع ضعف ذلك الاحتمال كثيرا. كان طلبهم واضحا وسكاكينهم مشهرة في وجوهنا بيد وفي اليد الأخرى أكياس قماش يطلبون منا بحركاتهم تفريغ ما لدينا من أموال وأشياء ثمينة فيها. كانوا يهددونا بما كانوا يصدرونه من صيحات وأصوات مرعبة، وتحريك الخناجر في وجوهنا، وتمريرها على رقابنا. وعندما استولوا على كل ما كان بإمكانهم الحصول عليه، طلبوا منا الخروج من المغارة، وفرقونا بخشونة واضحة، حيث أخذوا النساء عنوة في جانب والرجال في الجانب الآخر. ثم مد أحدهم يده لـ«سوزي» الصبية التي لم تتجاوز العاشرة عمرا، ابنة جارنا آرتين، وأمسكها من خلف رقبتها وأتجه بها نحو فرسه، فبدأت الصبية بالبكاء والصراخ. لم أتمالك نفسي فتقدمت ووقفت حائلا بين الخاطف وبين الصبية التي أمسكت بيدها وأنا أجرها نحونا، وفجأة تلقيت ممن كان لا يزال ممتطيا جواده ضربة من شيء ثقيل وصلب على وجنتي ألقت بي أرضا وأنا أشعر بآلام حادة وبدوار يلف بي حتى أصبحت شبه غائب عن الوعي. تذكرت أنني كنت أسمع صياح الرجال وبكاء وعويل النساء realpage=0048xالثكلى ومحاولة الجميع وقف قطاع الطرق تجار الرقيق الأنذال من خطف فتياتنا الصغيرات البريئات، ولكني كنت أشعر بعجز تام عن تحريك حتى رموشي، وتخيلت كيف أردفوا بناتنا المخطوفات على خيولهم، بعد أن سلبونا ليس فقط كل ما كان معنا من مبالغ ضئيلة، وحلي ثمينة، بل وكل كرامتنا وأعز ما نملك، فقد كانت آنيت بين من خطفوا، وكان صراخها آخر ما أتذكره قبل أن أفقد وعيي تماما.

أحسست بانقباض شديد في لحظة تذكر تلك الأحداث المؤلمة، وبدموع حرّى تنساب ببطء من عيني، عندما تبين لي أنني، وخلال أيام معدودة، أصبحت لاجئا، وفقدت شقيقتي، ولا أعرف شيئا عن مصير أبي وأمي، وأصبحت يتيما مشردا بلا وطن ولا عمل ولا مستقبل. ثم انتابني الغيظ وقلة الحيلة بعدها، وأنا أستعيد تلك اللحظات القليلة التي سبقت فقدي لوعي، وتذكرت عيني ذلك الرجل الملثم، الذي هجم وعصابته على قافلتنا. وشعرت ببعض الراحة لأنني لم أكن بكامل وعيي عندما تعالى صراخ وبكاء الأمهات وتوسلات الرجال والنساء للخاطفين بترك بناتهم، ولكن كل شيء انتهى خلال دقائق، فآذان الملثمين لم تكن تسمع العويل، وألسنتهم لم تنطق بأي كلام، وأعينهم لم ترَ أية دموع، ولا شك أن ذكرى تلك الليلة المرعبة ستبقى في ذاكرة الجميع ما بقوا أحياء.

مسحت دموعي المنسابة على خدي، وبقي الكثير منها داخل تجاويف عيني، وجمعت قواي وقلت لصاحب البيت الطيب، ذي اللحية البيضاء القصيرة، بضع كلمات شكر، وقبّلت رأسه، ووعدته بأن أسدد له دينه يوما، وسيبقى جميله، ومعروف زوجته في رقبتي realpage=0049xما حييت. أوقفني الرجل عند الباب وقال لي إن من الأفضل أن أبقى بضعة أيام إلى أن أستعيد قواي، فما مررت به لم يكن هينا، فقد أخبره آرتين بأن غالبية من كانوا في قافلتهم قد لقوا حتفهم في الطريق، جوعا

وعطشا وحتى رعبا من الجثث نصف المدفونة التي شاهدوها في الطريق، والأخرى المعلقة وهي عارية من المشانق، ومناظر مرعبة أخرى. وأنه يمكنني أن أغادر بعد التأكد من وجهتي. وقال إن بإمكاني المبيت لديه ومساعدته في عمله في العصارة إلى أن أتدبر أموري، وإن كنت عازما على الرحيل فإن أهالي قرية «تل ابيض» طيبون وسيقومون بمساعدته في إيجاد عمل في حقول القرية. شكرته ثانية وقلت له إن عليّ الخروج والتفكير في ما يجب عليّ القيام به، وسأعود للمبيت عنده إن لم أجد مكانا آخر، وفي خضم حزني ولوعتي نسيت أن أسأله عما حدث لجاري أرتين، وعندما تذكرت ذلك تاليا، قلت لنفسي بأنني سأعود له قريبا وأسأله عما حدث لذلك الرجل الذي أدين له بفضل إنقاذ حياتي، ومع ما كنت أشعر به من عجز فإنني لم أكن على ثقة بأن ذلك اليوم سيأتي. ولا أدري لماذا سارعت بترك مأواي الوحيد، ربما بسبب كل ما اعتراني من حزن وضياع ولم أكن بالفعل أعي ما كنت أفعله.

وقبل أن أقفل باب بيت الرجل خلفي، طلب فجأة مني الانتظار للحظة، ذهب للداخل وبعد لحظات عاد وهو يحمل بضع أرغفة خبر ساخنة في صرة، سلمني إياها مبتسما، دون أن يضيف كلمة.

realpage=0050x

realpage=0051x

الفصل السابع

العمل الجديد

كان يوما سعيدا بدد شيئا من أحزاني وأخرجني من ذل العمل اليومي المتقطع الذي مارسته لعدة أشهر يوم حصلت على عمل في مشغل تجليد كتب ومخطوطات دينية وسجلات حكومية، فقد كنت أمقت العمل في الحقول، وفي ورش البناء، وكنت أشعر أن قدراتي أكبر من ذلك بكثير.

عندما ذهبت لمقابلة صاحب المشغل، وكان ذلك مع نهاية العام 1915 كانت رائحة الجلد النفاذة تملأ المكان وتختلط، برائحة الغراء، الأقل قوة والتي كانت تسبب لي دوارا بسيطا في الصباح، ولكن حاجتي إلى عمل ودخل مادي مستقر كانت أقوى من رائحة الجلود المدبوغة وتأثير الغراء، فلم يكن أمامي غير الصبر، وبعد أيام قليلة اعتدت على روائح المشغل، خاصة وأن العمل كان جيدا ويدر دخلا لا بأس به لصاحبه، وكان ذلك ينعكس علينا. كانت تصله طلبات تغليف كتب المساجد القريبة والبعيدة، وسجلات حكومية متنوعة الأحجام والأشكال، ومخطوطات من كنائس وأديرة قريبة وبعيدة، إما لتجليدها، أو لإعادة ربطها ولصق أوراقها، أو تغيير أغلفتها المهترئة. كان العمل متقنا في غالبه. وكان صاحب المشغل حلبياً وفنان خط معروفاً بجمال خطه، وكان يخط أسماء الكتب على رقائق الجلد بدهان يشبه ماء الذهب، وكان يستخدم realpage=0052xأحبارا أخرى بألوان مختلفة يحرص على حفظ آنياتها في مكان محكم الإغلاق. وقال لي صاحب المشغل يوما إن سبب كل هذا الطلب على تجليد الكتب والمخطوطات يعود إلى الخوف من وصول نيران الحرب لمنطقتنا، وإتلاف وحرق كل شيء، وبالتالي كان مهما تجليد المهم من هذه المخطوطات، ودفنها في أقبية الكنائس وسراديب المساجد، فالتغليف الجيد سيساعد على حفظها من رطوبة تلك الأماكن.

كان صاحب المشغل، «إميل» إنسانا طيبا شجعني على قراءة بعض المخطوطات والكتب المطبوعة بالتركية أثناء فترة الاستراحة، بدلا من غفوة الظهيرة. كما كان يصر على أن أتعلم العربية، قراءة وكتابة، بأسرع وقت، فليس هناك، كما قال لي واقنعني، أمل بأن وطننا سيعود، وإن حلب هي الوطن، وهي المستقبل.

تعلمت من «إميل» الكثير، ولم أعرف أنه مسيحي، إلا بعد أسابيع من عملي معه، فنسخ القرآن التي كانت تملأ المكان وجهلي بدلالات الأسماء وهويات أصحابها الدينية لم تجعلني أشك يوما

في كونه غير مسلم، خاصة وأن الغالبية العظمى من سكان المدينة كانوا من المسلمين.

ومن إميل جاءت فكرة تدوين كل ما مررت به من أحداث ومآس، وله الفضل بعدها بسنوات في تحويل ما دوّنته في البداية على قصاصات إلى هذه الأوراق التي سأقوم يوما ما بتجليدها في كتاب أخط عليه اسمي واسم عائلتي الأرمنية، مصدر اعتزازي وفخري.

realpage=0053xبسبب نشاطي واتقاني لعملي قام إميل بالاستغناء عن العامل الذي كان يحضر لساعات قليلة فقط في اليوم لمتابعة المبيعات وإدارة العهدة ومسك دفاتر القيد البسيطة التي بها حسابات عملاء المحل. ومع الترقية والأجر الأعلى الأكبر جاءت المسؤوليات الأكثر وساعات العمل الأطول، وأصبحت مجبرا على الحضور مبكرا للورشة وفتح أبوابها وتهوية المكان، الذي يصبح خلال فترة المساء مشبعا بروائح الجلود المدبوغة والغراء. زاد دخلي، ولكني كنت أشعر بأن مصيري أو مستقبلي ليس في هذه الورشة، بالرغم من لطف صاحبها وجزالة ما كنت أحصل عليه من دخل، وفكرت جديا في أن أجد عملا آخر، أكثر جدوى.

أصبحت أتحدث وأكتب العربية بطريقة مقبولة، كما أصبحت أكثر دراية بمصادر شراء الجلود وأسعارها، وفكّرت في فتح ورشة صغيرة لحسابي لصناعة كراسي الجلد وسروج الدواب والخيل، وكراسي عربات النقل التي تجرها البغال، وكان الطلب عليها كبيرا بسبب ظروف الحرب. عرضت الفكرة على صديقي «فاهيه»، المهاجر الأرمني من «يريفان»، الذي سبق وأن تعرفت إليه في مقهى البلد منذ بضعه أشهر، فقال إنه سيفكر في الأمر.

يكبرني «فاهيه» سنا بما لا يقل عن عشرين عاما، إلا أن مظهره لا يدل على ذلك، فتقاطيعه الدقيقة ووجهه الخالي من التجاعيد وشعره الأشقر الكثيف، الذي لم يفقد لمعانه، وما كان يمتلك من روح مرحة وإصراره على الاختلاط بمن هم أقل سنا منه، دفعت الجميع تقريبا للتعامل معه وكأنه أصغر بكثير من عمره الحقيقي. realpage=0054xهكذا كان يشعر، وهكذا كان يتصرف.

سألته يوما، بعد أن توطدت صداقتنا أكثر، وكنا نتناول الشراب في مقهانا المعتاد عن السبب الذي جعله يترك حياة يريفان، عاصمة أرمينيا، تلك المدينة الكبيرة بصخبها ونشاطها وكل مباهجها، ويأتي إلى هذه البقعة أو المدينة الصغيرة، شبه المنعزلة عن العالم بعيدا عن كل ما له صلة بموطنه، دينا وطعاما وعاداتٍ، فنظر إليّ بعينين أحسست لأول مرة كم هما حزينتان ولم يقل شيئا، وبعد انتظار طال قليلا قال، بتردد واضح، أنه سيخبرني يوما عن السبب. ولكني أصررت عليه، فطلب مني أن أمهله لينتهي من شرب بضعة كؤوس شراب، فربما سيمتلك الشجاعة حينها ليخبرني بالحقيقة. ولكن صخب بقية رواد المقهى، وجدالهم المستمر عن أسباب ارتفاع أسعار المواد الغذائية، شغلني عنه فنسيت طلبي، ولم يحاول هو تذكيري به.

كان فاهيه صاحب خبرة في المصنوعات الجلدية من أغطية الرأس وحقائب السيدات ومحافظ الرجال وأحزمة الظهر، الرجالية والنسائية، وبعض المصنوعات الجلدية الأخرى. وبالتالي كانت فكرة فتح ورشة لإنتاج ما كنا نبرع فيه فكرة مناسبة جدا، إلا أنه كان مترددا في قبول المغامرة

بالرغم من مهارته في عمله، وتعلل بعذر أنه لا يفقه شيئا في الأمور التجارية ومسك الدفاتر وحسابات الورشة، وكيفية اقتسام المصاريف وغيرها من أعمال إدارية، وإنه يخشى المغامرة، فقد غامر مرة في حياته، ودفع ثمنا باهظا، ولا يود الأقدام على ما يخيفه مرة ثانية. كما أنه قلق على مستقبل أسرته، فما تمكن من جمعه من مال بالكاد يكفي لإعالة أسرته المكونة من صبيين وفتاة، realpage=0055x إضافة لزوجته، إن حدث له شيئا. وهو يفضل دخلا صغيرا مستمرا على دخل كبير غير مضمون أو متقطع. طمأنته بأنني اكتسبت خبرة لا بأس بها في مسك الدفاتر والحساب أثناء عملي في مشغل التجليد، وإن بإمكاني القيام بأكثر من عمل، وأن مشروعنا سينجح حتما، ويجب عليه التفكير في مستقبل أبنائه بطريقة مختلفة وأكثر إيجابية، فما الذي سيحدث لهم لو أصابه مرض أو منعه عارض من العمل أو لو طرد من عمله، لأي سبب؟

سكت فاهيه ولم يجب، ورفع رأسه كعادته عندما يود قول شيء مختلف، وبعد صمت طال قليلا نظر إليّ وقال إنه سيوافق على المشاركة في المشروع شريطة أن نترك تل أبيض ونرحل لمدينة حلب لأن الحياة فيها أفضل لأسرته الصغيرة، فهو يبحث الآن عن مدرسة أرمنية لابنه الصغير، وأنها غير موجودة في تل أبيض، وهو لا يريد أن يحرم ابنه من التعليم، بعد ما حرم هو منه، ولا يريد للصغير المصير ذاته، وهو فشل أصلا في توفير ولو تعليم بسيط لابنته البكر «ماريان»، التي تعيش معه في البيت.

realpage=0056x

realpage=0057x

الفصل الثامن

عندما مر الزمن سريعا

يقولون إن للوقت طريقة غريبة في مفاجأتنا بمروره دون أن نشعر به، وهذا ما حصل. فقد حدثت أمور كثيرة في حياتي في فترة قصيرة، أو خلتها كذلك، وفوجئت كم مرت الأشهر والسنون سريعا دون أن أنتبه، فتارة يبدو الوقت دهراً يسير بطيئا، بسبب كل الأهوال التي مرت بها، وتارة أخرى أشعر بأن كل هذا قد مر في لحظات دون أي إحساس بالزمن والحدث.

ليس هناك أمر أكثر بطئا، وسأما أحيانا، من مرور الوقت، ونحن صغار. وليس هناك أمر أسرع من مرور الوقت، ونحن كبار. وجميعنا تقريبا لا ندرك إلا متأخرين أن الوقت هو أثمن ما نملك في الحياة، فبغيره لا حياة، لا سنوات لا أشهر لا ساعات، قبل أن نرحل عن هذه الدنيا إلى الأبد!

يبدو لي وكأنني كنت بالأمس فقط شابا صغيرا، وأنا أمسك بيد أبي خائفا من صوت حوافر الخيل التي كانت تمر بنا في الطريق.

ياه.... ما أسرع مرور الوقت! يا ترى ما الذي سوف أفكر به لو وضعوا أمامي سجلا يحتوي على كل ما كنت سأقوم به في حياتي خلال الخمسين أو الستين سنة القادمة؟ لا شك أنني كنت سأصاب بالهلع، وسأطلب إضافة سنوات عدة أخرى لعمري لكي أستطيع القيام بكل تلك الأعمال والواجبات، والمعارك والمشاركات، realpage=0058xوالأفراح والأحزان، والسقطات والهفوات والاختلافات، وغير ذلك من وقت نحتاجه للسير والجلوس والنوم وممارسة الأفعال الحميمة، وتناول الطعام والشراب، والصياح والصراخ والزعل والجدال والتدخين، والانتظار...!

آه... ما أكثر ما أضعت من ساعات وأيام وأسابيع وربما شهورا وسنوات وأنا أنتظر، وأكثر ملل تلك اللحظات وسأمها وما أكثر ما كانت تصيبني بالإرهاق ... ساعات انتظار قدوم القطار ... ساعات انتظار طلب العمل، ساعات انتظار السفر، ساعات انتظار الحبيب، ساعات انتظار الرد على رسالة حميمة، أو برقية لئيمة، من محب أو عدو. ساعات انتظار لحظة الفراق، لحظة موت صديق أو قريب...!

وعندما نفكك كل لحظات حياتنا لأجزاء أصغر نُصاب بالصدمة من كل ما أضعناه من وقت

في التافه من الأمور، وفي تكرار الأخطاء نفسها، وإعادة تكرارها لعشرات المرات، وكأننا لا نتعلم، أو لا نعرف كيف نتعلم. وأحيانا تبدو الأشياء أو الذكريات بعيده جدا، وكأن سنوات تعد بالمئات قد مرت عليها، ولا أدري أين وكيف مر كل ذلك الوقت، وماذا حدث للعشرات من أحلامي والمئات من أمانيي، وهل تحققت كلها، بعضها أو لا شيء منها؟

والآن أكتب هذا وخريف عمري يقبل مسرعا، وأوراق صحتي تتساقط من حولي، ولا أدري متى سيحل الشتاء لأدفن بعدها تحت كومة من الجليد ليبقي شديد برودتها جسدي حيا، وإن من غير روح، ويرحل الغير عني ..بعيدا.

بدأت حياتي من غير مفاتيح، وفي منتصف حياتي أصبحت realpage=0059xأحمل كومة منها، والآن لا أحمل شيئا منها، فلم يعد في حياتي أية أقفال.

تلك كانت خاطرة كتبتها مساء اليوم الذي ذهبت فيه لصاحب الورشة «إميل»، وكان يوما عاصفا وشديد البرودة، لأبلغه قراري ترك العمل لديه. فوجئ بالطريقة التي فاتحته فيها بالموضوع، واعتقد أنني أطلب شيئا لنفسي، فأخبرني أنه على استعداد لأن يزيد راتبي، ولكني أخبرته، أن ليس للمال علاقة بالأمر، وإنني احترمه وأشكر ثقته وممتن لفضله فيما تعلمته منه، وإن الوقت قد حان لكي أمضي لحال سبيلي، فالوقت، كما كتبت في الليلة السابقة يمر سريعا، وغالبا دون أن نشعر به، وإن عليّ التحرك سريعا، فقطار العمر لا ينتظر النائمين.

تأثر إميل كثيرا بقراري ترك العمل لديه، ومغادرة تل أبيض، المدينة التي حضنتني، يوم وصلتها منقطعا ويتيما وجائعا، ومريضا، وبعد سنوات، أترك كل شيء ورائي للقدر، وأغادر.

ذهبت، وأنا أحمل هدية قيمة، لبيت ذلك الرجل الوفي، ذي اللحية البيضاء، الذي أنقذتني عنايته من موت محقق، وزوجته العجوز التي قامت بالسهر علي يوم وصلت «تل أبيض» محطما ومصابا بحمى قوية. أخبرني جاره بأن الرجل توفى قبل بضعة أشهر، وأن أرملته العجوز تركت القرية وذهبت للعيش مع أختها في قرية بعيدة، وربما تكون الآن هي الأخرى قد غادرت دنيانا، وهذا ما جعلني أشعر بالحزن الشديد والقهر لسوء حظي، وبتأنيب ضمير realpage=0060xشديد لعدم زيارتهما وهما على قيد الحياة، ولكني في الحقيقة لم أكن أملك ما يكفي من مال لأشتري لهما شيئا يليق بما قدماه لي من معروف. والمؤسف أكثر أن بموتهما ضاعت وربما إلى الأبد فرصة معرفة ما حدث لجارنا آرتين. ولم أعلم يومها أن مئات آلاف الأرمن من رجال ونساء اختفوا من على وجه الأرض وخرجوا من ذاكرة التاريخ ولكن بقوا في ذاكرة أهاليهم ومحبيهم لفترة قبل أن ينساهم هؤلاء أيضا مع زيادة متاعبهم ومصائبهم، وكان آرتين الطيب أحد هؤلاء.

realpage=0061x

الفصل التاسع

الرحيل إلى حلب

أستأجر فاهيه بيتا في أطراف حلب، وعرض عليّ السكن معه في غرفة تقع على السطح، وقال إنه سيتقاضى مني مبلغا محددا يشمل السكن والطعام وغسيل الملابس. قبلت العرض ليس فقط لأنه كان مغريا، بل لطمعي في أن تكون لدي فرصة أكبر لرؤية ماريان، التي أصبحت متعلقا بها.

لم تكن ماريان ذات جمال، إلا أنها كانت جذابة ومرحة بما يكفي، وكانت تحبب نفسها وأحيانا تقترب مني، بعيدا عن أعين والدها، وتغازلني بغنج واضح، وتحك جسدها بجسدي. كنت أغالب رغبتي في ضمها لصدري وتقبيلها، كما كنت أفعل مع «هيرين» على ضفاف نهر قريتنا، ولكن علاقتي بفاهيه كانت تمنع ذلك الشوق من أن يتجاوز الكلام والنظرة. كنت أتمنى الاقتران بماريان، ليس فقط لأنها حبيبة أبيها وما سيؤدي له ذلك من توثيق أواصر علاقتي وصداقتي معه، مع شريكي الجديد، بل ولكم الحرمان الجنسي الذي كنت أشعر به. كما أن زواجي بماريان سيشبع توقي لأن أكون إلى جانب فاهيه، فهو شخص مرح، ويمكن الاعتماد عليه، ونضجه يكمل ما بي من طيش، وحاجتي له تكمل حاجته لي، وإن كانت الأخيرة أقل من الأولى، وأن عرفت تاليا أنه كان يرى شبابه في شخصي، ولم يكن يميل لمصاحبة كبار السن، realpage=0062xفصحبتهم، حسب قوله، كانت تثير ملله وسأمه.

في أحد الأيام، وبينما كنا في المقهى القريب، وبعد أن تناول فاهيه كأسين من الفودكا اقترب مني وقال لي: لقد وعدتك، عندما كنا في «تل أبيض» وعندما كنا نخطط لأن نصبح شركاء، بأنني سأخبرك يوما عن السبب أو السر وراء مغادرتي يريفان وكل ما فيها من مباهج المدن الكبيرة، وهجر أهلي وكل شيء آخر والقدوم لتل أبيض بالذات، دون كل مدن وقرى العالم، للسكن والعمل فيها، هل تذكر ذلك؟ فقلت له نعم، وإنني كنت سأذكره بالأمر، ولكني كنت أنتظر اللحظة أو الفرصة المناسبة. قلت ذلك ولم أكن صادقا فيما قلت، فقد أنستني مشاغل الورشة الجديدة أشياء كثيرة كنت أود نسيانها، وكان إغراق نفسي في العمل وسيلة جيدة لنسيان أحزاني، والتغلب على ضغوط الذكريات المؤلمة والحزينة. وهنا قال فاهيه، متنهدا، لقد جاء الوقت المناسب لأخبرك بقصتي. أنا ابن تاجر قماش ووالدي أيضا فنان في خياطة الملابس الجلدية، ومنه تعلمت صناعة الاكسسوارات الجلدية النسائية. كانت حياتنا مريحة ولم نتذمر من شيء يوما بالرغم من أن العمل لم يكن مجزيا، ولكن حياتنا كانت أفضل من غيرنا بكثير.

وفي مساء يوم كنت مع خطيبتي وأختي في أحد مراقص المدينة، وكنا في حالنا نستمتع بوقتنا عندما ظهر شخص مخمور من بين الطاولات واتجه نحونا واقترب من أختي وبدا بالتحرش بها. فوقفت وطلبت منه أن يتركها لحالها، ولكنه أصر على الاقتراب منها أكثر. كان ضخم الجثة، ولو لم يكن مخمورا لما realpage=0063xتجرأت على تعنيفه. أصر على موقفه وزاد إصرارا كلما أبعدته عنها، وبدا موقفه مخيفا وهو يدفعني عنه ويحاول الاقتراب من شقيقتي التي أصيب بهلع وصرخت عندما مد يده فجأة ورفع ذيل ثوبها، فاشتعل الغضب في رأسي وهجمت عليه وألقيت به أرضا، فقام من سقطته بصعوبة وأتجه نحوي يريد الشر بي، فتجنبته، فقد كانت يداه ضخمتين، ولم أرد أن تطبقا على رقبتي في تلك اللحظة. تجنبي إياه وعجزه عن الإمساك بي زاد من هياجه، فاندفع نحوي بكل قوته فتجنبته ثانية بخفة ووضعت قدمي أمامه، ففقد توازنه وسقط كعمود خرسانة على الأرض، ولم يقم من سقطته تلك أبدا.

أمسكت بيد خطيبتي وأختي وهربت من النادي الليلي، وأوصلتهما لبيتنا القريب، وذهبت لأختبئ في بيت صديق لي.

علمت في اليوم التالي أن ذلك المخمور ابن لأحد كبار مقاولي البناء في يريفان، وأنه شخص فاسد وله الكثير من المعارف بين رجال السلطة. كما علمت أن تقرير الشرطة جاء في غير صالحي، وأنني كنت السبب في وفاته بسبب ما وجهته له من ضرب، وكيف أنني دفعته فسقط وارتطم رأسه بأحد أعمدة النادي! لم يكن ذلك صحيحا بالطبع، ولكن كان من المستحيل تسليم نفسي ومحاولة إثبات براءتي مع كل الفساد الذي تشكو منه المدينة.

قررت الهرب والنفاذ بجلدي، فلم تكن لدي ثقة بالعدالة، واختفائي هنا أو هناك لن يطول وستعرف الشرطة مكاني يوما حتما، ولهذا قررت الرحيل عن يريفان، فدفعت مبلغا لمهرب معروف realpage=0064xلينقلني بعيدا عن أعين الأمن، ولم أجد أفضل من الهرب إلى إحدى مدن السلطنة العثمانية، الدولة اللدود لنا، ولا أعرف حتى اليوم لماذا اختار ذلك المهرب نقلي لمنطقة «تل أبيض بالذات، وليس لأي مكان آخر؟

ما أن أنهى فاهيه سرد قصته حتى أنتبه إلى أن عينيه قد امتلأت بالدموع وأنا أستمع له، فتأثر كثيرا ثم ابتسم، وقال لي: هوّن عليك، أنا بخير! معتقدا أنني كنت متأثرا من قصته، وما أن وضع يده على كتفي حتى انخرطت في بكاء مر، ولم أشعر إلا وهو يضمني لصدره كالطفل الصغير، بعد أن أحس أن ما رواه قد أثار شجوني لحادث ما، دون أن يدري أو يقصد. بقيت كذلك للحظات، شاعرا بحنان الأبوة التي افتقدتها مبكرا، وربما إلى الأبد. طبطب فاهيه على ظهري، وسألني عن سبب بكائي فسردت له، بين الشهقة والأخرى كطفل صغير، ومخاطي يختلط بدموعي، وأنا أغالب البكاء، قصة خطف شقيقتي آنيت من قبل اللصوص وتجار الرقيق، وكيف أنني لا أعرف شيئا عن مصيرها، وما حدث لها، وكيف أنني على استعداد لأن أتخلى عن كل شيء في حياتي من أجل أن أعرف مصيرها. وأنه سعيد الحظ فهو على الأقل يعلم جيدا أين أخته، وأنها بخير!

هدأت أعصابنا بعد لحظات، وجلسنا صامتين. سكب فاهيه لي كأسا من الفودكا، التي أفرغتها

في جوفي الجاف والذي كان بحاجة لشراب قوي، يعيد لي حيويتي.

لا أدري كيف امتلكت الشجاعة، وربما بسبب ما تناولته realpage=0065xمن شراب فقد اقتربت من «فاهيه» قليلا وقلت له بارتباك واضح بأنني أود مفاتحته بأمر يهمني جدا، وسألته إن كان على استعداد لأن يستمع لي الآن أو نؤجل الموضوع لوقت آخر. نظر إليّ فاهيه بحنان أبوي واقترب مني هو أيضا وقال: لن تجدني في وضع أفضل من الآن لسماع كل ما تريد قوله، تفضل! فقلت له بأنني أعتذر لجرأتي ولما سأقوله، وإن كان ما سأطلبه يتعارض مع رغباته فسأتقبل ذلك بصدر رحب، وأرجو أن لا يؤثر طلبي بالقبول أو الرفض على عملنا وشراكتنا وقبلها على صداقتنا، فهذا أمر مختلف تماما...قلت ذلك وعدلت جلستي، وأنا غير مقتنع بما قلته.

ابتسم فاهيه، وأمسك بيدي، وقال مازحا: أريدك أن تتكلم وأنا ممسك بيديك لكي لا تهرب بعد أن أرفض طلبك. فقلت له بعد تردد لم يطل كثيرا، والخجل يملئني: يشرفني أن أتقدم إليك طالبا الزواج من ابنتك «ماريان». أنا أعلم أن هذه ليست الطريقة المناسبة، وأعلم أنه يفترض أن أتقدم لك ومعي كامل أسرتي، ونقدم لكم صحن الملبس والتفاحة الحمراء، كما تقتضي الأصول الأرمنية، ولكنك تعلم جيدا أنني شبه يتيم ولا أعرف مصير أبوي، وليس لي في هذه الديار لا عم ولا خال. شجعتني الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه أن أمضي قائلا: قد لا أكون الرجل المناسب لابنتك، ولكن تأكد أنني سأبذل قصارى جهدي لأجعلها سعيدة ومكرمة وعزيزة. وهنا لم يستطع فاهيه مغالبة دموعه، وجاء دوره ليدفن رأسه الكبير وشعره الأشقر الكثيف في صدري، وبعد صمت طال realpage=0066xقليلا رفع رأسه، وقال: يا عزيزي سيروج، لقد عرفتك وعملت معك، وشاركتك، ولن أجد أفضل منك زوجا لابنتي، وأنا موافق على طلبك، ولكن بشرط واحد... وهنا أحسست بهبوط قلبي إلى ركبتي، خوفا من صعوبة الشرط، فلاحظ اضطرابي وسارع بالقول: إن الشرط هو قبول ماريان بي زوجا!

realpage=0067x

الفصل العاشر

الزواج

في حفل بسيط أقيم في الكنيسة الأرمنية تم عقد قراني وماريان، ولم نستطع إقامة حفل خارج الكنيسة، بسبب عدم وجود أحد من أسرتي حولي، وأوضاعي المادية الصعبة نتيجة المتاعب التي أصبحت تواجهنا في الورشة، وعدم قدرتنا على الوفاء بالمبلغ الصغير الذي اقترضناه لإجراء التوسع في أعمالنا بعد انتهاء الحرب العظمى.

تحسنت الأحوال بعدها، وجاء خبر حمل ماريان خيرا علينا، حيث كنت بحاجة لابن يؤنس وحشتي ولمن يساهم في استمرار نسلي وبقاء اسم أسرتي حيا بعد كل الفراغ الأسري الذي كنت ومئات آلاف الأرمن في مختلف أصقاع الأرض نعيشه بعد تهجيرنا من مدننا وقرانا وأعمالنا.

كانت حياتي الزوجية سارة بشكل عام، وكانت ماريان نعم الزوجة، ولم تتذمر يوما من البيت الصغير الذي انتقلنا إليه، وكان يوم سعد وصحو جميل يوم ولد ابننا البكر «كالوست». كانت سنة مليئة بالأحداث، وجاء اختيار الاسم تيمنا باسم رجل أعمال أرمني من مواليد إسطنبول، كان حينها الأرمني الأشهر في العالم، واسمه على كل شفة ولسان، وكان يشتهر بلقب «مستر 5%» لأنه لم يكن يقبل الدخول بأي مشروع بأكثر من نسبة 5%، ولا بأقل منها. كما realpage=0068xكانت عمولته عن أية صفقة أو عقد يكون طرفا فيه 5 % أيضا، لا أكثر ولا أقل.

تزامن بلوغ كالوست العام الأول من عمره مع وصول مصطفى كمال أتاتورك للحكم في تركيا. وكان لذلك تأثيره السلبي على أعمال الورشة، فقد قام أتاتورك بعد فترة قصيرة من توليه مقاليد السلطة، وتفرده بها بإنهاء نظام الخلافة العثمانية وقطع كل صلة للجمهورية التركية الجديدة بتلك السلطنة، وخاصة فيما يتعلق بأعمال ورشتنا؛ فقد أمر بإلغاء الحجاب ومنع الرجال الأتراك من ارتداء أغطية الرأس، والطرابيش، وطالب شعبه الاقتداء به في ارتداء الملابس الأوربية، ووصل تأثير قراراته تلك بعدها بفترة قصيرة لكافة المناطق التي كانت سابقا خاضعة للدولة العثمانية، والتي أصبحت تاليا تحت أحد الانتدابين البريطاني أو الفرنسي. أصبحت نصف الرؤوس حاسرة، من غير غطاء، وبالتالي خسرنا كل ما كنا نبيعه للمناطق التركية القريبة من حلب، من قبعات وطرابيش، وكان يمثل نسبة لا بأس بها من إنتاج الورشة. كما قل الطلب، مع توقف الحرب العظمى، على سروج الدواب، والأغطية الجلدية لكراسي عربات الجر، وغيرها من المنتجات الجلدية.

بالرغم مما كنت أشعر به من تعلق بابني الوليد، إلا أنني انشغلت عنه تماما بأعمال الورشة واجتماعات الكنيسة، خاصة وأن الأزمات كانت تحيط بنا كأرمن، مع تزايد قضايا مطالباتنا بالتعويض عما تعرضنا له كشعب من فقد لممتلكات وقتل وتشريد، وقضايا لم الشمل والبحث عن المفقودين، وكنت دائم البحث عن realpage=0069xأي أثر لأبي أو أمي وطبعا لم أتوقف يوما عن البحث عن أي أثر لآنيت، حيث كنت أزور الكثير من المراكز الأهلية التي نشطت في تلك الفترة في لم شمل العائلات الأرمنية التي تفرقت بها السبل، وكانت كل زيارة لي لأي من هذه المراكز تبين حجم المأساة التي مررنا بها، والعدد الكبير من المفقودين الذين لم يعرف أهاليهم شيئا عن مصيرهم بالرغم من مرور سنوات، وخاصة صغار السن ومن الفتيات بالذات. كنا مشغولين بالمساعدة والإعانة وكنت الأكثر حاجة لمن يعينني، ولكن نكران الذات كان دائما يتغلب عليّ، خاصة مع استمرار الجناة في إنكار أي دور لهم في ما حصل من جرائم، وإلقاء كل المسؤولية والتبعات على النظام السلطاني السابق، بعد أن تحولت تركيا لجمهورية علمانية لا علاقة لها بالخلافة العثمانية وما اقترفته من جرائم بحق شعوب كثيرة.

لا أتذكر أنني حملت ابني «كالوست» كثيرا، أو ذهبت به للنزهة أو الترفيه، فقد كنت غارقا في عملي، وواجباتي ومسؤولياتي اتجاه قضية قومي، وكل هذا كان يأخذ الكثير من جهدي ووقتي وطاقتي.

أما نومي فقد كان مضطربا دائما، وكانت الكوابيس تلاحقني، وكنت أحلم كثيرا بشقيقتي آنيت التي فقدتها صغيرة، والتي لا يزال صراخها، الذي أتخيله في عقلي، ورجال العصابة الملثمون يجرونها على الأرض ويحملها أحدهم ويردفها خلف زميله على الحصان، ويقوم آخر بربطها بظهر الخاطف بحبل، ولا يزال ذلك الصراخ، الذي لم أسمعه، لأنني كنت نصف فاقد لوعيي، يقطع نياط قلبي، ويصدر طنينا غريبا في أذني بين الحين والآخر، وأحيانا realpage=0070xيوقظني الطنين من نومي فزعا. وكنت في ليال أخرى أحلم بها وهي تضرب خاطفها على صدره، بيديها الرقيقتين العاريتين، وتركل بطنه الضخمة بقدميها الصغيرتين، فأقوم من النوم فزعا وأنا أشعر بآلام في معدتي وكأنها كانت تركلني في بطني وليس في بطن خاطفها، ربما لأنني تركتها لأولئك الوحوش، والذين لم يكونوا ليترددوا بطعني بخناجرهم لو حاولت وقفهم عن خطفها، وكنت أقول لنفسي مخاطبا آنيت، لقد حاولت يا عزيزتي أن أمنع خطفك وخطف سوزي الصغيرة، ولكني فشلت وكدت أن ألقى حتفي. كانت تلك الأحلام والكوابيس تزداد بعد كل زيارة لمراكز البحث عن المفقودين.

أين أنت الآن لكي أشرح لك ما حصل، ولأقبل رأسك وأنظر إلى عينيك الخضراوين الجميلتين، وأطلب مغفرتك، وأعتذر لك عن جبني، وقلة حيلتي، وهوان حالي. إن تقاطيع وجهك البريء يا آنيت لا تريد أن تغادر مخيلتي، ومهما كبرت فستكون صورتك تلك هي الباقية، ولا أدري إن كان سيأتي يوم نلتقي فيه... أم لا؟

لقد كبر بقية أبنائي سريعا، واستمر انشغالي عنهم جميعا بعملي ورفاقي، وباجتماعاتنا المسائية في كنيسة «الأربعين شهيد» للأرمن في حلب، وبمساعدة مراكز البحث واستمرار السؤال والبحث عن آنيت وعن أبي وأمي. وبالتالي لم تسنح لي الفرصة لأمرر لابني البكر ما تعلمته من

والدي، وما حفظته من أشعار وقصص فولكلورية ومعارف، وثقافة وحب قضيتنا والإخلاص لها، وكانت صلتنا كأب وابن ضعيفة للغاية، وكان مفاجئا لي رؤية realpage=0071xابني كالوست يوما في الورشة، فهو لم يفكر يوما في القيام بذلك، وكانت شكوكي أو توجسي من رؤيته صحيحة، حيث اقترب مني حيث كنت أجلس أمام آلة الخياطة والقى سلاما مقتضبا وقال فيما يشبه الهمس بأنه يود التحدث معي في أمر هام يخصه. تركت الإبرة والخيط من يدي، وأزلت المكواة من على النار، وأمسكت بيده وذهبت به لركن قصي وهادئ من الورشة. وتبين أن ما يود الحديث عنه، وقبل أن نجلس، يتعلق بقراره الزواج من «سارة»، ابنة جارنا عبدالرحمن غانم، وزميلته في المدرسة!

لا أدري ما أصابني من حزن زاد عن حزن فقدي لوطني عندما أخبرني كالوست أنه مضطر لأن يغير دينه ويصبح مسلما، وهو مدرك لتبعات ذلك، اجتماعيا ودينيا وتأثيره على أسرته، ولكن لا خيار لديه. ارتبكت، وأربكته معي فهوينا جلوسا معا، ربما بعد أن شعرنا سويا بعدم قدرتنا على الاستمرار في الوقوف. كنت أرتجف من صدمة ما كنت أسمع، وكان هو أيضا يرتجف لما سببه لي من ألم. شردت عنه قليلا وأنا أتخيل المصلين في الكنيسة يتهامسون، وهم يشيرون إليّ أو ينظرون نحوي، ويسخرون ويتساءلون، كيف قبلت بزواج ابنك البكر من مسلمة؟ وكيف قبلت بأن يغير دين آباءه وأجداده، من أجل امرأة؟ لماذا أهملت تربية أبنائك ليشبوا أرمن حقيقيين؟ أنت السبب في ما لحق بنا جميعا من عار!!

شعرت بأن كالوست صامت ويشيح بوجهه عني وكأني أنا المخطئ وليس هو. ربما كان يشعر بما كان يدور بخلدي من أفكار وبفيض الأسئلة التي كانت تدور في رأسي، فقال وهو لا realpage=0072xيزال مطرقا برأسه بأن تحوله عن مسيحيته سيكون صوريا، وأنه سيبقى في داخله أرمنيا صادقا، ولكني كنت أفكر في سمعتي أمام أقراني، وفي احتمال استدعاء راعي الكنيسة لي ولومي على تربيتي. ولكن هل يا ترى سأستمر في الذهاب بعدها إلى المقهى، ملجئي المفضل من متاعب الحياة؟ كيف يمكن أن أواجه عشرات أعين رفاقي وهي تكاد تنطق بمئات الأسئلة التي لا أملك أية إجابة عنها، وهل ستبقى معزتي في قلوبهم بعد هذه المصيبة؟ وهل ستتوقف سخريتهم وتعليقاتهم وكل ما سيصدر منهم من كلمات مستفِزةوساخرة بحقي، لست أدري؟

لا أدري ما حدث لي في تلك اللحظة، فقد وضعت وجهي بين كفي، وأخذت أنتحب أمام ابني كطفل صغير. سمع بكائي وربما شعر بالحرج وبالارتباك الشديد، فتركني وغادر الورشة، وأشعرني ذهابه بأنني فقدته إلى الأبد. ومنذ تلك اللحظة توقفت عن إضافة حرف لهذه الأوراق.

سيروج.................والدك

لا أدري كم بكيت وأنا أقرأ أوراق أبي التي بث فيها شجونه، ومعرفتي بكل ما كنت أجهله عنه وعن ظروفه، ومعاناته، وعن عمتي آنيت، وحجم الأهوال التي تعرضت لها أسرتي وبقية الأرمن، والتي لم يشعر بها العالم في حينه، أو يعرف أحد حجمها الهائل.

ربما غفوت عشرات المرات وأنا أقرأ تلك الأوراق في الحافلة التي كانت تقلني وزوجتي

وابننا إلى دمشق. غرقت في عرقي مرات realpage=0073xكثيرة، وأصابتني وساوس وحيرة شديدة في ما يجب عليّ القيام به، هل أعود لحلب وأُقبل رأس أبي وأطلب مغفرته، وأعود لقومي وديانتي وأهلي، أم أستمر على موقفي وعنادي؟

أحلام كثيرة زارتني عنوة مع كل غفوة قصيرة، ولا أدري كيف، فقد كانت الحافلة تدفع رأسي للتمايل ذات اليمن وذات الشمال، وهذا كان يتسبب في أن افتح عيني من الغفوة والأخرى فزعا غير مدرك مكاني أو أين أنا، وأنا متشبث بأوراق أبي لا أريد لها السقوط من بين أصابعي، التي تيبّست عليها.

realpage=0074x

realpage=0075x

الجزء الثاني

realpage=0076x

realpage=0077x

الفصل الأول

أنا ناصر الكويتي

كنا أربعة مراهقين من مواليد أوائل ومنتصف أربعينيات القرن الماضي، وشديدي القرب بعضنا لبعض، ومن أهالي حي كويت الوسط، والذي يمتاز بكون سكانه يمثلون كل شرائح مناطق الكويت الأخرى، وبالتالي ليس له هوية عرقية أو مذهبية محددة، ويمتاز كذلك بوجود كل الأسواق فيه من ذهب وطحين وسمك ولحوم وخضرة ومكاتب التجار، والدوائر الحكومية وغيرها.

لا أتذكر، وبعد مرور كل هذه السنين والأحداث، كيف التقينا، ولا أتذكر الآن حتى أسماءهم الكاملة أو انتماءات أسرهم السياسية والمذهبية، ولكني أتذكر جيدا تقاطيع وجوههم، وميولهم وأهواءهم.

كنا مجموعة مختلفة عن بقية المجموعات، أو الشلل الشبابية الأخرى، فلم يكن لدى أي منا ميول كبيرة لمشاهدة مباريات كرة القدم، والتعصب لفريق ما، أو الحرص على متابعة مبارياته. وكانت الفرق الرياضية التي كان يتابعها غالبية أقراننا إما فرقا محلية وإما مصرية في الغالب، وكانت المتابعة تتم عن طريق الراديو. كما لم نكن نفضل الاستماع لمطرب على غيره، ولم نختلف يوما على أفضلية صوت وألحان فريد الأطرش على أغاني محمد عبدالوهاب، أو جمال هند رستم مقارنة بجمال برلنتي عبدالحميد، فجمال أي realpage=0078xمنهما كان يؤدي الغرض عندما «تثور» أو تتطلب الحاجة.

كنا شغوفين بالجلوس بعضنا مع بعض، وتبادل الفارغ من الكلام، وتحضير الشاي، وتناول الأطعمة الخفيفة والحلويات في غرفة بيت أي منا، حسب الظروف، وخاصة في الصيف عندما تغادر أسر بعضنا أو جميعها للخارج لقضاء الموسم في أماكن أكثر برودة وطراوة، وكانت وجهات السفر حينها لا تخرج في الغالب عن مثلث لبنان، إيران أو مصر.

كنا جميعا ننتمي لأسر من الطبقة المتوسطة، وهي تسمية مجازية، فلم يكن في الكويت يومها ما يمكن وصفه بتلك الصفة، بل كانت هناك، ولا تزال، بعد نصف قرن، أسر غنية وأخرى متوسطة الحال وثالثة فقيرة، فالدخل المادي كان هو المعيار وليس الوظيفة أو المهنة أو المستوى التعليمي، أو تأثير تلك الطبقة ثقافيا وسياسيا على المجتمع.

كان أكثرنا قربا للطبقة الوسطى، حسب المفهوم الكويتي، صديقنا محمد، المعروف بـ «محمد كاش»، ابن تاجر الذهب، أو الصايغ، حيث كان الوحيد بيننا الذي كانت لديه سيارة خاصة. اكتسب محمد كاش لقبه بيننا مما كان يتوفر في جيبه من عملة نقدية، فقد كان وحيد والديه، بعد أن توفي أخوه الأكبر في حادث سير، وهو في طريقة إلى العمرة. وكان والده لا يبخل عليه بشيء، وكان هو بدوره كريما معنا.

لم يبلغ محمد كاش السن القانونية عندما حصل على إجازة قيادة، فقد «توسط» والده لابنه الوحيد لدى مسؤول أمني كبير realpage=0079xلمنحه الإجازة، لحاجته لمن يقوم بتوصيله للمحل ولأماكن أخرى، ويكون في عونه، وهو الرجل المسن والمريض، متى ما تطلب الأمر ذلك.

أما صديقنا «جاسم العري»، أو الأعرج، وهذا كان لقبه، وهو لقب لم نطلقه إليه، بل تعرفنا عليه وهو بذلك اللقب، ولا أدري من أطلقه عليه، ولم يكترث يوما بالتسمية، لأنه لم يكن أصلا يشكو من العرج. وعندما كان أحد يناديه بالأعرج كان يستجيب للنداء مبتسما، ويجري باتجاه ذلك الشخص وهو يفتعل عرجا خفيفا، وسط ضحكاتنا. وجاسم هو الابن الأصغر لموظف كبير في دائرة الجمارك.

ثالثنا هو «محمد الثاني» ولقب بالثاني، للتفريق بينه وبين محمد الأول، أو «محمد كاش». كان محمد الثاني أطيبنا قلبا والأكثر قربا لأي منا، والأقل كلاما وصخبا، وصمام أمان طيشنا ومغامراتنا!

أما أنا، ناصر، فكنت أعرف أنني مشهور بين رفاقي بلقبين، وإن كانا يطلقان علي من خلف ظهري. كنت أعرف أنني أشتهر بـ «ناصر بوكس»، أو «ناصر الدفش» فالخشونة في الرد أو ضربة البوكس جاهزة لمن أختلف معه، وخاصة عندما لا أجد طريقة «حضارية» وسلمية أكثر لإنهاء النقاش، ولا أدري حتى الآن لماذا كنت ألجأ للعنف، حتى في دفاعي عن صفة العنف فيّ!

كنا نختلف قليلا في طريقة تعاملنا مع الغترة، أو غطاء الرأس الخليجي الأبيض، وهي من مستلزمات اللباس للرجال. كان محمد كاش الوحيد بيننا الذي كان يرتدي الغترة ويضع عقال الرأس عليها، realpage=0080xوكان يقول إن والده كان يفضل رؤيته بتلك الطريقة. أما جسوم العرج فكان يكوي غترته بطريقة جيدة ويطويها عدة طيات ثم يلقيها على كتفه اليسرى. محمد الثاني كان متميزا عنا بإصراره على أن لا يحمل معه غطاء رأس، بل كان يهتم بنوعيه قماش الدشداشة، لباسه الخليجي، وأن تكون مختلفة عن قماش وخياطة دشاديشنا بقبتها المغلقة، عكس قبات دشاديشنا المفتوحة للخارج، وبوجود درزات على جيبها العلوي. كما كان ينتعل دائما، صيفا وشتاء، نعالاً غالية الثمن اشتراها له عمه، كما أخبرنا، من معرض السرحان المطل على ساحة الصرافين في السوق. لم أكن أهتم كثيرا بغطاء الرأس فكنت أحيانا كثيرة أنساه في البيت وأخرج حاسر الرأس.

أنتمي لأسرة تتاجر بالخشب. كان والدي وجدي شريكين ويديران تجارتهما من محل كبير يقع على السيف، أو ساحل البحر وميناء الكويت التجاري الوحيد تقريبا.

كان من الطبيعي أن محال ومخازن المواد الإنشائية قريبا من الميناء، بسبب حجم مثل هذه

المواد ووزنها الثقيل، وما سيتكلفه أمر نقلها لمستودعات بعيدة. ولكن مع توسع الكويت وما قامت به الحكومة، ابتداء من خمسينيات القرن الماضي، من استملاك عقارات المواطنين في داخل المدينة القديمة، لغرض المنفعة العامة، دفع تجار المنطقة لنقل مخازنهم إلى أماكن أخرى بعيدة عن الساحل، بعد أن توسعت الكويت وتوفرت وسائل النقل الرخيصة نسبيا، وكانت منطقة الشويخ الصناعية الأكثر جذبا وملاءمة لتجار مواد البناء.

realpage=0081xكانت تجارة الأسرة في الخشب تعتمد على استيراد مختلف أنواع الخشب من الهند، ومن سواحل أفريقيا الشرقية، وبعدها أخذوا يستوردونه من بورما، ولكن بعد التعرض لخسائر، أصبح جدي يفضل شراء الخشب من التجار المحليين الذين لديهم إمكانيات استيراد أكبر، وإن بأسعار أعلى قليلا، ولكن مخاطر ذلك كانت أقل بكثير من الاستيراد، بعد أن أصبح الكبار في سوق مواد البناء أكثر قوة وتحكما في الأسعار، بفضل إمكانياتهم المادية الضخمة وقدراتهم الكبيرة على التخزين.

لم يكن أي منا، نحن الأربعة، كغالبية مراهقي أوائل الستينيات، وما قبلها، من رواد المساجد. ولم نكن نكترث أصلا بمعرفة هوياتنا الدينية، وإن عرفناها، فمن باب الفضول، وإن عرف أحدنا هوية الآخر المذهبية، ووجدها مختلفة عنه مثلا، فأنه سرعان ما يتجاهل الأمر ولا يلتفت له أو يعيره كبير اهتمام.

كنا جميعا ندخن السجائر كوسيلة إثبات للرجولة وعلامة على البلوغ، ولكننا لم نكن شرهين في تدخيننا. كان محمد كاش أكثرنا تدخينا، وكان يفضل تدخين سجائر روثمانز الإنجليزية. أما محمد الثاني فكان يفضل تدخين سجائر «كنت» الأمريكية الأكثر شهرة، بمبسمها الأنيق مع الفلتر، والتي كانت دعايتها في كل مكان وبالذات في السينما. أما أنا وجسوم العرج فكنا نفضل تدخين سجائر غازي التي كانت تستورد من العراق، ونفضلها لأنها كانت من غير فلتر. وبالرغم من اختلاف أذواقنا، إلا أن بعضنا كان لا يتردد في السطو على علب سجائر بعضنا الآخر، خاصة عندما لا realpage=0082xتتوفر عند أحدنا السيولة لشراء علبة جديدة. وكان «محمد كاش» الضحية الأكبر لعمليات السطو العلنية تلك، ومع الوقت تعلم أن يفرغ نصف علبه سجائره في البيت، ويحمل النصف الآخر معه، ليس بخلا ولكن لردعنا قليلا عن التدخين من علبته عندما نجدها نصف فارغة.

كنا نستمتع بالتجول في سيارة «محمد كاش»، وخاصة خلال عطلة نهاية الأسبوع، حيث كنا نذهب لقضاء بعض الوقت بين نخيل وأشجار المنقف والفنطاس أو أبوحليفة، التي كانت أيامها شبه خالية من البيوت والبشر والمركبات، وحتى من الطرقات. وكان فيها بضع صفوف من أشجار الإثل، وبعض أشجار السدر هنا وهناك، ولا أدري حتى الآن من الذي زرعها، ومع قلتها إلا أنها كانت تعني الكثير لنا بأحجامها وظلالها. كنا نفترش الأرض تحتها، ونتناول طعام الغداء، الذي نحضره في قدور معنا، ويتبع ذلك غفوة، بعد الوجبة الدسمة، قبل أن ننطلق عصرا لمدينة الأحمدي، عاصمة صناعة استخراج وتصدير النفط في الكويت، والمدينة الإنجليزية النموذجية التي فشلنا في خلق ما يشابهها في أماكن أخرى، والتي لا تزال بعد أكثر من 60 عاما الضاحية أو المدينة الأجمل في الكويت بشوارعها المنظمة، وبيوتها التي كانت مختلف الخدمات تصلها، كغاز الطبخ والتدفئة. وكان لكل بيت حديقة، هذا

غير حدائق المدينة العامة، وكانت أسوأ البيوت والحدائق مصنوعة من أعواد قصب أو نباتات خاصة، مثل تلك التي توضع على أسقف البيوت الريفية في إنجلترا كعازل لمياه المطر، وكانت مناسبة لطقس realpage=0083xالكويت، وغير مكلفة ومرنة يسهل تعديلها، مقارنة بحوائط وأسوار الخرسانة والحديد. وكانت الأحمدي، التي سميت تيمنا بالشيخ أحمد الجابر، الذي بدأ تصدير النفط في عهده، مكانا جميلا للتنزه، وممارسة هواية مغازلة الفتيات في السيارات الأخرى. بسبب طول اليوم وبعد المسافة بين الكويت والفنطاس وبعده الأحمدي ثم العودة للكويت، فإننا كنا غالبا ما نشارك محمد كاش في دفع ثمن وقود السيارة، وأحيانا في مصاريف غسلها وتنظيفها.

كنا بين الحين والآخر نسافر جميعا إلى مدينة عبادان الإيرانية بسيارة محمد كاش عن طريق مدينة البصرة العراقية. لم تكن الرحلة سهلة خاصة في أشهر الصيف الرطبة والشديدة الحرارة وفي مركبة غير مكيفة، ولكن الهدف كان يستحق كل ذلك العناء.

كانت مدينة عبادان، عاصمة الصناعة النفطية في إيران، ميناء تجاريا هاما ترتاده عشرات ناقلات النفط والسفن التجارية يوميا. وكغيرها من المدن البحرية القديمة كبيروت واسطنبول وهامبورغ فإن غالبية زائريها ومرتادي أسواقها هم من بحارة تلك السفن المحرومين من الجنس واللهو.

كان «دوب» عبادان، هكذا كان يطلق عليه، يفتح أبوابه لزبائنه من الرجال في ساعات محددة من اليوم، وتغلق بوابته الرئيسية مع غروب الشمس. كان الدوب يقع ضمن منطقة سكنية، ولكنها محددة لا يمكن الدخول إليها من غير بواباتها «الرسمية» وكان من الداخل يشبه أي حي سكني عادي لا يمكن أن تفرقه عن غيره بخلاف جلوس بعض سكان تلك البيوت من الفتيات أو العجائز، وهن نصف realpage=0084xعاريات على الأبواب ودعوة الزبائن للدخول وشرب الشاي.

كنا نقضي الساعات في الدوب بين المغامرة الجنسية والأخرى، ووجود زبائن في أي بيت دليل على أن ما فيه من فتيات لا بد أن يكن جميلات أو جديدات، ولا نعود للفندق عادة إلاّ عند انتهاء ساعات عمل الدوب، أو بعد أن نصرف كل ما في جيوبنا من مال. كنا في هذه الحالة نعود للفندق لأخذ قيلولة لا بد منها ثم نتجه مساء لتناول العشاء في مطاعم «الجلو كباب» والتسكع في الأسواق وشراء ما لا نجده في الكويت من حلويات شهيرة وأسطوانات الأغاني الغربية لمطربين معروفين أمثال «فرانك سيناترا» و«دين مارتن» وغيرهما، التي كانت أسعارها زهيدة جدا مقارنة بأسعارها في الكويت. لم نكن نعرف أنها مقلدة، وأنها تتلف سريعا إن تركت في السيارة أو في الشمس حتى لفترة قصيرة، ولكننا كنا لا نتردد في شرائها لزهيد ثمنها.

كنا نمضي وقتنا مساء بالجلوس في حديقة فندقنا الرخيص والمفضل لدينا جميعا لقربه من الدوب. كنا نهرب من حرارة الغرفة ورائحة مفارشها العطنة، بتبادل الأحاديث وتدخين السجائر والمفاخرة بقدراتنا الجنسية ووقوع فتيات الدوب الإيرانيات في غرامنا، ثم الاستفاضة في شرح خططنا الغرامية وما ننوي القيام به في اليوم التالي وأي بيت سنزور.

في طريق العودة للكويت كنا نشعر دائما بأن الطريق يصبح أطول، فلا شيء بانتظارنا غير الملل والشعور الطاغي بالحرمان، ولكننا كنا نمني النفس برحلة تالية، والعودة لعبادان.

realpage=0085x

الفصل الثاني

المقهى

في يوم أخبرنا «محمد كاش» بضيق والده، عندما يكون في السيارة معه، من رائحة السجائر فيها، وطلب منا أن نتوقف عن التدخين في السيارة، وقال إنه سيقوم بغسل فرشها بالماء والصابون لإزالة أي رائحة منها. أيدته في ذلك، وطلبت من البقية مشاركتي في دفع تكاليف التنظيف فقال جسوم العرج بأننا نستطيع أن نتعاون أربعتنا في غسلها، وهذا ما حصل. كما اقترح جسوم أن نتوقف عن التدخين لفترة، وأنه يفكر في استبدال السجائر بجلسات تدخين «القدو»، أو الأرجيلة. وافق محمد كاش فورا على الاقتراح، وقال إن تدخين التنباك، أو التتن، أقل كلفة وأقل ضررا، وأضاف بأنه يعرف مقهى يقع في الشارع الجديد، القريب من محل والده، صائغ الذهب، وأن جلسته معقولة، وفيه كل ما نريد. كما يمكننا هناك سماع أغاني أم كلثوم، التي بدأت أذواقنا بتقبل ألحان وكلمات أغانيها، وصوتها الرائع، هذا غير ما كان يدخله الادعاء بأننا من عشاق أغانيها من شعور بالرجولة والنضج فينا.

استهزأ محمد الثاني من الاقتراح، ولكن عندما عرض محمد كاش أن تكون جلستنا الأولى في المقهى على حسابه، انقلبت السخرية إلى ترحيب بالفكرة، والثناء على من اقترح ومن سيدفع، فالجيوب كانت خالية، مع اقتراب الشهر من نهايته المحتومة.

realpage=0086xالتقينا في السابعة من مساء اليوم التالي، وكان يوم خميس، في مقهى ومطعم الفندق الجديد، في الشارع الأهم في الكويت، وهو «الشارع الجديد»، والذي تغير ليصبح شارع «الشيخ عبدالله السالم»، حاكم الكويت المستنير، والذي توفي في منتصف الستينيات، والذي كان له أكبر الأثر في تقدم الكويت وتميزها عن غيرها في محيطها، وما وفرته سياساته الحكيمة من شعور بالاستقرار لكل الجاليات التي كانت تقطن الكويت.

كان «الشارع الجديد» أول شارع منظم في الكويت. كان يبدأ من منطقة السيف، شمالا، حيث ميناء الكويت التجاري الأول ويمر في ساحة الصفاة، وينتهي عند بوابة السور، أو الشامية. وكان الشارع يمثل نقطة التقاء مناطق العاصمة الرئيسية الثلاث، القبلة والشرق والمرقاب، هذا بخلاف الحي التجاري في الوسط. كما كان الشارع الأهم في الكويت تجاريا، حيث كانت تكثر فيه محال بيع الأجهزة الإلكترونية والساعات، ومطاعم المأكولات، الجديدة على الذوق المحلي. وأتذكر أن أول مرة تناولنا فيها سندويشة شاورما مع بيبسي كانت في مطعم يقع في نهاية ذلك الشارع. كما كانت تقع في وسط الشارع محلات مسقطي الشهيرة ببيع أجود أنواع الملابس الداخلية، وغيرها من الملبوسات من

الماركات العالمية. وفي إحدى زوايا الشارع كان هناك مخزن الغربللي الشهير.

كان الشارع الجديد يوازي من جهة سوقي «واجف» وسوق الحريم، ويوازي من جهة أخرى سوق المقاصيص وسوق الصناديق أو الحقائب. وكان الوصول للشارع إما من ساحة الصفاة جنوبا، realpage=0087xوإما من جهة ميناء الكويت شمالا، وإما من شارع الغربللي شرقا.

وكانت تقع على امتداد سوق المقاصيص محال بيع أسطوانات الأغاني لمختلف المطربين المحليين والمصريين والعراقيين، من أمثال عبدالله فضاله، وعبداللطيف الكويتي، ومحمد عبدالوهاب، وفريد الأطرش، وناظم الغزالي وسليمه مراد وداوود الكويتي وأخيه صالح اللذين هاجرا تاليا لإسرائيل مع نهاية الأربعينيات. وكانت الأسطوانات حينها صلبة ومن إنتاج الشركات المحلية ك «بيضافون» المصرية و«جقمقجي» العراقية. كما كانت تباع في ذلك السوق آلات الطرب كالعود والماصول، أو الناي، والكمان وأنواع مختلفة من الدفوف والطبول، والمراويس. وكنت أتجول أحيانا كثيرة في ذلك السوق وأشعر بعبق الماضي، وبغرابة من كانوا يزاولون مهنة بيع الأجهزة الموسيقية في دكاكينهم الصغيرة التي تغطي جدرانها مختلف الأجهزة والأدوات الموسيقية.

كان مقهى «الفندق الجديد» يقع على سطح الطابق الثاني من مبنى يقع وسط الشارع الجديد، وكان دوره الأرضي عبارة عن مطعم يقدم المشاوي والأطعمة الشامية أو اللبنانية، أما الدوران الأول والثاني فكانا عبارة عن غرف فندقية متواضعة المستوى لا يتجاوز عددها العشرين بكثير.

كان المقهى، غير المغطى، والذي لم يكن يستخدم عندما يكون الطقس شديد البرودة أو الحرارة، أو مغبرا أو ممطرا، يقدم لمرتاديه الشاي السيلاني والشاي المصري، وشاي الزعتر وشاي الليمون الأسود، إضافة للقهوة التركية، والأرجيلة، أو القدو مع realpage=0088xالتنباك العجمي. وكان رواده غالبا من عمال المنطقة، وبالذات الصعايدة، الذين كانوا يأتون له من منطقة المرقاب القريبة، لتبادل الأحاديث والاستماع لأغاني «الست» وتناول كاسات الشاي المحضرة على طريقتهم. كما كان يرتاد المقهى بعض أصحاب المحال في سوق الحراج، الواقع خلف المقهى، من مواطنين وغيرهم، خاصة من منطقة شرق، وهم الأكثر ولعا بتدخين الأرجيلة مقارنة بأقرانهم من أهل حيي جبلة أو المرقاب، الذين لم يكونوا عادة من رواد هذه المقاهي، ولا من محبذي التدخين أصلا.

بالرغم مما كان يصدح به جهاز راديو «باي PYE» القديم في المقهى من أغان جميلة، إلا أن رؤوس قلة من الرواد كانت تتمايل طربا مع صوت أم كلثوم، فالغالبية تكون عادة مشغولة إما بالأحاديث الجانبية، وإما بلعب الورق وإما بالصراع والصراخ حول لعبة طاولة نرد.

وصول أربعتنا بملابسنا المحلية، وعمرنا اليافع، للمقهى في عصر ذلك اليوم لفت أنظار القلة، وكنا نعتقد أن أحدا ما سيرحب بنا ويجلسنا في مكان مناسب، كما اعتدنا عندما كنا ندخل مع أهالينا إلى مطعم في لبنان أو سوريا، ولكن يبدو أننا كنا متفائلين كثيرا. اخترنا طاولة وجلسنا حولها، واكتفينا في الدقائق الأولى بمراقبة الحضور، وكأننا نشاهد مسرحية بطيئة في حركة ممثليها، معروفة النهاية، أبطالها رواد مقهى عتيق، بخلفيات متناقضة ومتنوعة.

خرجنا قبل منتصف الليل بقليل من المقهى، ومن تجربة لم نكن نعرف حينها إلى أين ستأخذنا في مستقبل الأيام. كنا جميعا realpage=0089xتقريبا نشكو من دوخة أو صداع خفيف ربما بسبب أنفاس الأرجيلة التي دخلت في صدورنا. كان من الممكن أن ننجر أكثر في التدخين لولا إلحاح «محمد الثاني» بضرورة اكتفاء كل منا «ببضعة أنفاس» من الأرجيلة ذات التبغ العجمي القديم، مع ثلاث كاسات من الشاي الثقيل. كانت تلك أول ليلة لا ندخن فيها أية سجائر، وتركنا بالطبع «محمد كاش» يهرول لدفع فاتورة الحساب، دون سؤال ولا جواب.

تكررت زياراتنا للمقهى، وأصبحنا أقل رغبة في تدخين السجائر التي توقفنا تماما عن تدخينا بعد فترة قصيرة، ولكننا أصبحنا أكثر إقبالا على تدخين الأرجيلة، مرتين أسبوعيا، وأصبح المقهى بعدها مكان لقائنا المفضل. وهكذا توقفنا عن الطلب من محمد كاش أن يمر علينا بسيارته لتوصيلنا للمقهى، وأصبح كل منا نحن الثلاثة يدبر نفسه.

realpage=0090x

realpage=0091x

الفصل الثالث

لقاء «عبداللطيف الأرمني»

وفي مساء يوم ونحن الأربعة مشغولون بلعبة ورق «الكوت» الشعبية، التي أصبح «جسوم العري» ومحمد الثاني بارعين فيها، تقدم منا رجل يكبرنا سنا بكثير، وتبدو عليه أمارات الإرهاق، وكنا نراه أحيانا في المقهى جالسا وغالبا بمفرده في زاوية محددة يدخن القدو، أو الأرجيلة، وكنا نلاحظ احترام العاملين في المقهى له. عندما تقدم منا وطلب أن يجلس معنا ترددنا في الترحيب به، فقد كان كثير البحلقة أو النظر بطريقة خاصة لجسوم العري. وكنا نشك في نواياه اتجاه صديقنا وخاصة وأنه لاحظ أنني كنت أراقبه وهو سارح في النظر لجسوم. تبرعت بالترحيب به بطريقة حرصت على أن تبدو بأنني أفعل ذلك على مضض. ما أن جلس حتى قدم نفسه بأنه يشتهر باسم المعلم «لطيف، والبعض الآخر يناديه بـ «عبداللطيف الأرمني»، وأنه صاحب المقهى والمطعم والفندق. عمره ومكانته جعلتنا نتوقف عن اللعب ونلتفت إليه ولكنه طلب منا أن نستمر، لأنه يريد أن يعرف شيئا عن لعبة الورق الكويتية... بعد مراقبة وبضع أسئلة وقف مغادرا وأخبرنا بأنه سيأتي في وقت آخر، ليخبرنا بأمر سيدهشنا جميعا! وهذا ما حدث بالفعل بعدها بأيام، حيث جاء وقدم نفسه ثانية وصافحنا فردا فردا وتعرف أسمائنا، وبعد حديث مقتضب قال إن لديه ما يود التحدث فيه معنا، وأنه realpage=0092xيتمنى أن نقبل دعوته لتناول وجبة أو «أكلة أرمنية» من إعداده.

استغربنا جميعا الطلب، فالفارق بين أعمارنا، نحن الذين لم يتجاوز أكبرنا الثامنة عشرة من عمره بكثير، وبين عمره الذي يبلغ ضعف أصغرنا سنا، ليس بالقليل. كما تخوفنا بالفعل من نواياه ونظراته لجسوم العرج وسوء نواياه، ولكننا شجعنا بعضنا بعضاً بنظرات متبادلة مومئين برؤوسنا بالموافقة، وكان جسوم أكثرنا حماسا ربما لأنه كان يعرف ما عليه القيام به. انفرجت أسارير الرجل عن ابتسامة امتنان أبوية، وغادرنا بعد أن أخبرنا أين ومتى نلتقي.

كان «لطيف» أكثر لطفا وكرما مما كنا نتوقع، فقد استضافنا في إحدى غرف الفندق الخلفية والتي لا تطل على الشارع الجديد. كانت الغرفة خالية من سرير النوم المعتاد، ولا تحتوي إلا على ستة كراس من القش وأريكة قديمة وطاولة وسط مغطاة بشراشف مشغولة، أرتيزانا، وبضع صور رسوم فارسية موضوعه في أطر خشبية مطعمة بالصدف. وفي الجوانب وضعت بضع طاولات قهوة مغطاة أيضا بالصدف، وقد تكون صناعة شامية، ويبدو أن الغرفة تستخدم من قبله كغرفة معيشة

ملحقة بغرفة نومه، حيث كان الفندق بيته ومكان عمله، كما أخبرنا تاليا.

دخل النادل الغرفة ووضع في وسط الطاولة مجموعة أطباق تحتوي على أطعمة أرمنية، لم يكن أي منا قد جرّب تناولها من قبل، ولم يكن بينها ما يبدو لذيذا وطيبا، أو يناسب أذواقنا، وكان واضحا ترددنا في تناول شيء، إلا بالكاد، وعندما لاحظ ذلك اعتذر realpage=0093xمنا «لطيف»، وقال أنه قام بتحضير غالبية تلك الأطعمة بنفسه، ولكن يبدو أن ذلك التبرع لم يجعلها مغرية أكثر. وهنا قال لنا، بعدما استمر ترددنا، بأن العزيمة أو الوليمة القادمة ستكون مختلفة. قال ذلك وقام وغادر الغرفة، وكان غيابه فرصة للتهكم والسخرية من الطعام الأرمني، وخلو المائدة من العيوش أو الأرز وأنواع المرق، والمجابيس، وحتى من السمك.

عاد لطيف بعدها بلحظات وهو يحمل زجاجة نصف فارغة بداخلها سائل شفاف سكب كمية منها شيئا في قدح زجاجي يشبه «الاستكانة» وأضاف الماء للسائل فتحول لونه للأبيض، فقلت من فوري هذا «شراب العرق»، وأعرفه جيدا فقد كان والدي وخالي يتناولانه عندما كنت أصحبهما في سفرهما إلى لبنان. وأن ذلك الشراب كان يُقدّم في مطاعم منطقة زحلة الشهيرة بروادها وجوها العائلي. وأخبرتهم كيف سرقت لنفسي شفة من كأس والدي يوما، عندما كان وعمي مشغولين بالنظر لعرض ملكة جمال الصيف، واعتقدت يومها أن طعمه يشبه طعم نوع من العلكة، ولم أستسغ طعمه كثيرا. وهنا قاطعني لطيف، وأمارات الخيبة بادية على وجهه، وقال: يا ناصر، هيدا عرق أرمني مش لبناني! بس تكبر لازم تجربه مع الأكل الأرمني وراح يعجبك! فقال محمد كاش بأننا كبار وبالغون ولسنا بحاجة لأن ننتظر حتى نكبر ونجرب شرب العرق. وأضاف بأن طعمه سيكون مقبولا أكثر مع الأرجيلة، فهذا ما كان السائحون يفعلونه في زحله.

نظر إلينا لطيف واجما وقال بصوت بدا صادقا بأنه لا يمكن realpage=0094xأن يسمح لنا، ونحن بمثابة أبنائه بتناول المشروب عنده، فقاطعته قائلا، ما عليك يا عم لطيف، هات لنا كم كاس وراسين أرجيلة وما عليك، وسترى أن أكلك الأرمني سينتهي في بطوننا بدقائق.

لم تمر نص ساعة حتى تحولت الجلسة، المحرجة نوعا ما بين اربعة مراهقين ورجل في منتصف عمره إلى شيء مختلف، واصبح الطعام الأرمني مقبولا، وغيب دخان الأرجيلة، ورشفات قليلة من العرق الأرمني الأصيل، حسب تعبير لطيف، كل إحراج، فانفتح الرجل علينا، وأصبح واحدا منا، مع تلاشي أو سقوط «الميانة» بيننا، وخاصة بعد أن سأله «جسوم العرج» عن السبب في أن اسمه إسلامي وهو «أرمني»، شكلا ولهجة، فهل هذا اسمه أم لقب اشتهر به. فنظر إلينا بحيرة وطأطأ برأسه ولم يقل شيئا، وكأنه فوجئ بذلك السؤال من جسوم العرج، ثم رفع رأسه لنا وهو يتمتم بشيء لم نسمعه جيدا، ووجهه محمر وعيناه ضيقتان وفيهما شيء من الدمع، وألتفت إلى جاسم وقال له: أنت الأقرب لي، فعيناك تذكرانني كثيرا بعيني ابني «بدر»! بدر الآن أصغر منكم ولكنه يشبهك كثيرا يا جاسم! بهتنا مما ذكر وخرجت منا في اللحظة نفسها تقريبا آهة استغراب وسؤال: أنت متزوج؟ فرد بحزن قائلا نعم متزوج ولي ابن وحيد، ولكن زوجتي تركتني وعادت لأهلها وربما لعملها في حلب، حدث ذلك عندما كنت أعيش وأعمل في بغداد بعد أن تركت حلب إلى الأبد! قال ذلك ووضع يده في جيب سترته الداخلي وأخرج محفظته وطال من جانب منها صورة لصبي يبدو في الثانية عشرة أو

الخامسة عشرة من عمره، فتلقفها realpage=0095xمحمد الثاني وأخذ ينقل بصره بين الصورة ووجه جسوم العرج ثم ضحك وقال إن الشبه فعلا كبير. انتقلت الصورة ليدي ثم ليد جسوم الثاني وأومأنا برؤوسنا موافقين، فقد كانت تقاطيع بدر تشبه بالفعل تقاطيع جسوم بعينيه الكبيرتين وأذنيه البارزتين للخارج. أعاد لطيف الصورة بحزن لمحفظته، وقال لنا أنه يرسل كل شهر تقريبا رسالة لزوجته وابنه، وبعض المال، ولكن قلما يجيبان على رسائله وهو لا يلومهما على ذلك بعد أن رفض كافة توسلات زوجته بالعودة إليهما وإلى حلب.

أخبرنا لطيف بأنه كان يراقبنا منذ أسابيع ونحن نأتي للمقهى، وأنه ما كان ليتطفل علينا لو لم يجد بيننا من يذكره بابنه الوحيد، الذي قد لا يتمكن من رؤيته ثانية، أبدا.

ازداد فضولنا لمعرفة المزيد عن هذا الرجل الذي كان غريبا وبعيدا عنا منذ لحظات وأصبح، خلال دقائق قليلة أكثر قربا لنا مما كنا نتصور، ولكن دقات على باب الغرفة قطعت استرسال أفكارنا، وتبين أنه أحد موظفي الفندق جاء يخبر لطيف بأن هناك من يود مقابلته، فاعتذر منا وغادر الغرفة طالبا منا أن نستمتع بالجلسة وإن لم يعد لنا، لسبب أو لآخر، فإننا أحرار في البقاء أو المغادرة متى شئنا. وقال إن لقائنا التالي، في جميع الأحوال، سيكون يوم الخميس القادم في الوقت نفسه.

الطعام الأرمني ليس سهلا مضغه، ولا حتى هضمه، فهو يمتلئ باللحوم المقددة والمحضرة مسبقا، وفيه نسبة عالية من الدهون والشحوم. ولهذا لا نجد مطعما أرمنيا شهيرا، إلا ما ندر، وغالبا يكون قريبا من أحياء سكن realpage=0096xالأرمن أو عملهم وأماكن تواجدهم بكثافة، وما ينطبق على الأرمن ينطبق على غالبية أمم الأرض. وسبق أن قرأت بحثا في مجلة الهلال الشهرية المصرية التي كان يشتريها والدي أحيانا جاء فيه: إن المطابخ التي تتقبلها أذواق البشر، وهناك شبه اتفاق على قبول طعمها، هي قليلة بالفعل مقارنة بعدد شعوب الأرض وتعدد ثقافاتها، ولا تتعدى، في أحسن الأحوال، خمسة عشر مطبخا، كالصيني والفرنسي والياباني واللبناني والمكسيكي، والإيطالي والتركي والإيراني والهندي، والتايلندي، وإلى حدّ ما المغربي. وليس صعبا أن تجد هذه النوعية من المطاعم منتشرة في الكثير من عواصم العالم المعروفة، والكبيرة منها بالذات، والتي يقبل على ارتيادها أصحاب خلفيات ثقافية عدة، ومن مختلف الجنسيات. أما مطابخ أو مأكولات بقية أمم الأرض فقد تكون جيدة، ومقبولة من البعض، إلا أنه ليس هناك إجماع على جودتها، وتقبّل طعمها من غالبية البشر. فمصر والعراق مثلا من أقدم دول الأرض، وأغزرها حضارة وتضرب جذور شعوبها عمقا في التاريخ، ومع هذا ليس لديها ما يكفي من أطباق طعام يمكن بها فتح مطعم ناجح أو مربح. الشيء ذاته ينطبق على بريطانيا، فبالرغم من أنها كانت لعقود طويلة واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ، وأكثرها تأثيرا في ثقافات الشعوب والأمم، وخاصة تلك التي استعمرتها، إلا أنه ليس لديها طبق طعام واحد يتفق عشرة أشخاص من خلفيات ثقافية متنوعة على أنه طبق جيد، دع عنك فتح مطعم «إنجليزي»! والأمر ذاته ينطبق على أستراليا وأمريكا، realpage=0097xودول كثيرة أخرى. وبالتالي الأمر لا علاقة له بالحضارة ولا بالتخلف ولا بحجم الدولة، بل هو هكذا ولا أحد ربما يعرف السر.

كنا جميعا نتطلع شوقا للجلسة التالية، وعندما اكتمل شملنا مساء ذلك اليوم بادرت بسؤال

لطيف عن مصدر حصوله على المشروب وهو ممنوع في الكويت، فقال إن هذا صحيح، ولكن الحكومة سمحت لشركة «كري ماكنزي» البريطانية المعروفة والتي لها أنشطة في غالبية مستعمرات بريطانيا، باستيراد المشروب من الخارج وبعدها بيعه للمستهلكين بنظام الكوتا أو الحصص Ration بحيث يباع لكل رب أسرة كمية محددة من المشروبات الكحولية يتصرف بها كيف يشاء طالما أثبت أنه غير مسلم، فالمسلمون لم يكن لهم حق الشراء من الشركة. ولكن الشركة لم تكن تستورد غير المشروبات المعروفة عالميا، أما العرق أو مشروبات الشعوب الأخرى الخاصة بها فإنها لم تكن تتعامل بها، وبالتالي كان علينا نحن الأرمن وغيرنا من بلاد الشام إحضار حاجتنا من هذا المشروب من أوطاننا معنا أو التوصية عليه. وقال إنه شخصيا يتلقى دائما هدايا من أصدقاء سوريين أو أرمن قادمين من حلب، من بينها قناني عرق. كما أنه يشتري حصته المخصصة له من ال Ration والمحددة بدقة من شركة «ماكينزي» البريطانية ويهديها لأصدقائه قبل أن يقرر في السنوات الأخيرة الاحتفاظ بجزء منها لاستهلاكه الشخصي.

وقال إنه عادة ما تكون الكمية التي يحصل عليها بعض غير المسلمين من الشركة أكثر من حاجتهم، أو لا يكونون من شاربي الكحول أصلا، فيقومون ببيعها لمن يريد من المسلمين، مواطنين realpage=0098xأو مقيمين، محققين لأنفسهم فارق سعر لا بأس به! وقال إنه كان يلاحظ وقوف مركبات المواطنين حول الشركة في أيام توزيع الراشن في محاولة من ركابها لاصطياد من يود بيع ما حصل عليه من مشروب من الشركة.

العشاء في تلك الليلة، كما وعدنا عبداللطيف، كان شيئا مختلفا، فقد حضر لنا طباخ الفندق أو المطعم في الدور الأرضي مجموعة من المازات اللبنانية، مثل الحمص والمتبل وكبة برغل وفلافل وجوانح دجاج وبطاطا حره، وبقية المازات المعتادة.

توالت جلساتنا مع لطيف الأرمني وأصبحت أكثر حميمية، بعد أن عرفنا عنه وعن أسرته الشيء الكثير. ففي بداية أولى جلساتنا المطولة، استأذن «محمد كاش» لقول شيء، فالتفت له لطيف قائلا، تفضل، فقال محمد بأنه يتحدث بلساننا جميعا، وإننا سعداء بمعرفته، وبسماع قصته، وممتنون لكرمه ولكننا لا نود منه أن يقدم لنا أية مواد مسكرة، فثمنها فوق طاقتنا، إن أردنا دفع ثمنها، ولا نريد منه أن يقدم لنا ما هو مخصص له مجانا، كما أن في تناولنا ما يخالف القانون، وخاصة أنه الأكثر اهتماما بالموضوع لأنه من يقود السيارة في نهاية السهرة. هز لطيف رأسه موافقا على الطلب، وقال إنه لم يكن يرغب في تقديم الكحول لنا لولا إصرارنا، وانه أحضر زجاجة العرق في ذلك اليوم لنفسه، لأن تناول الطعام الأرمني مع العرق هو تسليته الوحيدة.

أعتذر لطيف منا على خطئه ولكنه طلب منا السماح له بتناول كأس من الويسكي كل مرة يجلس فيها معنا ليقص علينا تاريخ realpage=0099xحياته، وقصة قدومه للكويت، فهو بحاجة إلى شيء يذهب عنه أثر ما سيرويه من ذكريات حزينة، لكي يستمر ولا يستسلم للحزن، فهززنا رؤوسنا جميعا بالموافقة، والفضول والتساؤل يقتلنا عما سيسرده علينا من قصص ومغامرات.

realpage=0101x

الجزء الثالث

realpage=0102x

realpage=0103x

الفصل الأول

البدايات

بدأ لطيف قصته بالقول إنه ولد في حلب في بداية العشرينيات، وأنه تركها، لأسباب سيأتي على ذكرها تاليا، ولولا شوقه لرؤية ابنه وزوجته لما فكر في العودة لها ثانية، ولكنها تبقى فكرة ولن تصبح واقعا، فهو يشعر برهبة مواجهة كل ما تركه خلفه، خاصة رفاقه الذين ترجوه كثيرا وبحراره أن يبقى، ولكنه رفض، وعندما يئسوا منه أخذوا يعايرونه بأنه سيفشل وسيعود خائبا.

أخبرنا عبداللطيف أن اسمه الكنسي هو «كالوست سيروج بازليان»، ولكنه غير اسمه الأول إلى عبداللطيف مع اضطراره لتغيير دينه عندما قرر الزواج من زميلته «سارة»، المسلمة في المدرسة التي كانا يعملان فيها. وقد اشترط أهلها عليه تغيير دينه وأن يصبح مسلما لكي يقبلوا به صهرا. وأخبرنا وهو يضحك، وربما كان يبكي ضحكا اضطراره للدخول في تجربة الختان في تلك السن المتقدمة نسبيا، وكيف كانت تجربة مؤلمة لم يشفَ من آثارها.

بهتنا جميعا، وساد صمت غريب بيننا، فهذا الرجل يقول إنه مسلم ولكن لا شيء فيه يدل على ذلك، ولم يسبق لأي منا أن سمع أو قابل من تحول عن دينه. كما أنه يتصرف بالنسبة إلينا كغيره من غير المسلمين، فهو يشرب المسكرات، ولا يستحرم ما يستحرمه المسلمون عادة كأكل لحم الخنزير. ولكن عند سؤاله عن سبب realpage=0104xهذا التناقض في تصرفاته هز رأسه قائلا بأنه تحول للإسلام مضطرا، والتقاليد أو الشريعة الإسلامية تقول بذلك، ولكن من الصعب عليه جدا كره أو نبذ ما أعتاد عليه طوال حياته. كما أنه، كمسيحي سابق، يؤمن بقوة بأن رب السماء رحيم وسيسامحه على كل خطاياه، إن وجدت.

عدل لطيف من جلسته، وأخذ رشفة من كأس الويسكي، الذي كان يضعه دائما على الأرض تحت الطاولة، وقال إنه لم يحبنا فقط لأن فينا من يذكره بابنه، بل وأيضا لملاحظاتنا الذكية، وأننا سنكون يوما شيئا في هذه الدولة الفتية، كما أن القضية الأرمنية أصبحت مؤخرا شغله الشاغل، ويريد أن يعرف العالم ما تعرض له شعبه من مجازر وتهجير وقتل وتشريد، وكانت أسرته، وهو تاليا، من ضحايا هذه المجزرة.

أخبرنا، وهو رافع يده وصوته، وكأنه في مظاهرة جماهيرية، أنه يعتبرنا النواة التي سيبدأ

بها «مسيرته» في نشر القضية الأرمنية على العالم أجمع، قال ذلك وضحك وشاركناه الضحك. سكت قليلا ثم استطرد قائلا إنه الآن يقوم، من واقع تجربته الشخصية، بمثل ما قام به مدرسه الفلسطيني، في أواخر سني دراسته في ثانوية حلب، عندما كان المدرس ينتهز أية فرصة للحديث عن قضية وطنه، فلسطين، ومعاناة شعبه، وما تعرض له من ظلم على أيدي الإسرائيليين والمنظمات والقوى الدولية، وكيف خسروا وطنهم وتشردوا في مختلف دول العالم. وأخبرنا أن كلام ذلك المدرس الفلسطيني أثر فيه كثيرا في حينه لدرجة أصبحت القضية realpage=0105xالفلسطينية، لفترة طويلة، مأساته الشخصية وقضيته، وأنه لا يزال من مناصريها، وكان يدرك وقتها أنه وأسرته، والشعب الأرمني، تعرضوا لما يشبه ما تعرض له الفلسطينيون، من فقد وطن وسلب حقوق وتهجير، وإن كان بشكل أكثر دموية بكثير. وقال لنا أنه يتمنى أن يكسب قلوبنا مع قضية وطنه، وهو الذي لم يفعل الشيء الكثير من أجل تلك القضية. وهنا هززنا رؤوسنا لا نعرف بماذا نجيب أو كيف نتصرف.

انتهت جلستنا تلك الليلة سريعا، مع وعد بلقاء لن يطول، بعد أن أخبرنا محمد كاش أو الأول أنه سيتغيب لبضعة أيام لاضطراره البقاء مع والده في المستشفى لحاجته إجراء عملية بواسير صغيرة.

التأم شملنا ثانية بعدها بأيام قليلة في غرفة الفندق الصغيرة، ونحن في لهفة لقدوم صديقنا الجديد والغريب والكبير، «لطيف الأرمني». وهنا قال محمد الثاني بأن الوضع يشبه إلى حد ما قصص ألف ليلة وليلة، والتي كانت تتطلب من شهرزاد أن تقص كل ليلة قصة على شهريار فإن عجزت فإنه سيقتلها، كما فعل مع زوجات كثيرات قبلها. فكانت تبدأ بسرد قصة مشوقة عليه ولا تكملها بعد أن ينام الأمير شهريار. وفي الليلة الثانية تعود لتكملة القصة وتبدأ بأخرى فيخلد الأمير للنوم ولا يقتلها، وهكذا. وإن لطيف كان يشعر أو يعلم جيدا بأن علاقتنا به ستنتهي أو ستموت متى ما انتهى من سرد قصته علينا، فلا شيء غيرها يربطنا به، مع كثير من الأمور السلبية التي تدفعنا للاتجاه الآخر، وهو يريد أن يستمتع برفقتنا لأطول فترة، لتبقى العلاقة حية ولتستمر سعادته بصحبتنا، realpage=0106xما استمرت قصته.

لم يتأخر لطيف كثيرا عن الموعد الذي سبق وأن حدده لنا. وما أن وصل حتى أخبرنا بأن الغرفة مطلوبة لضيف سعودي، وأنه مضطر لنقل الجلسة للمقهى على السطح، وأنه رتب مكانا لجلوسنا في إحدى الزوايا، وبعيدا عن جهاز الراديو، وصخب الرواد. رحبنا جميعا بذلك، وقال محمد كاش أنه لن يبقى إلا بشرط، وهو أن يكون العشاء، في تلك الليلة، على حسابه، ومن مطعم الفندق، ولقي الاقتراح طبعا قبولنا بسرور واضح، ولكن لطيف اعترض، وقال إننا جميعا ضيوفه في تلك الليلة، ولكن محمد كاش هدد بالانسحاب إن رفض طلبه، وهنا قام محمد الثاني، وهو يضحك، وقبل رأس لطيف طالبا منه قبول العرض.

تنحنح لطيف، وكأنه ينظف حنجرته، قبل البدء في سرد مأساته والمأساة الأرمنية، والتي قال إنه استقى شيئا منها من أوراق والده التي سلمه إياها في محطة الحافلات بحلب، وأخرى استقاها من قراءاته الأخرى وما سمعه من الكثيرين تاليا. وكيف أن الأرمن بالرغم من انتمائهم جميعا لعرق واحد ولغة واحدة، إلا أن تباعد تجمعاتهم الكبرى بعضها عن بعض خلق، مع مرور الزمن، اختلافات في

اللهجة وحتى في اللغة بينها، وفي طريقة كتابة بعض الأحرف. كما لم تسلم عاداتهم ومجاميعهم من الاختلاف، وذلك بسبب تأثر أرمن كل منطقة بالدول الأكبر التي هم فيها أو يجاورونها مثل روسيا وإيران وتركيا. وأخبرنا بأن لا أحد يعرف بالدقة عدد من تعرض للقتل من الأرمن، ولكن بعض المصادر تضع الرقم فوق realpage=0107xالمليون بكثير، ولكن ليس هناك أرقام دقيقة بسبب الفوضى التي كانت تعم تلك المنطقة، والعالم نتيجة الحرب العظمى، وانهيار كيان السلطنة العثمانية، وتشتت مستعمراتها.

لم يقتصر القتل والتشريد على الأرمن فقط بل طال أقليات مسيحية أخرى كالسريان والكلدان، وبالذات الأشوريين من أتباع الإمبراطورية العثمانية. وكانت غالبية عمليات القتل تتم بمساعدة جنود تابعين لأقليات مسلمة من غير الأتراك، وخاصة من الأكراد. كما لم يسلم يونانيو الإمبراطورية من القتل، وخاصة على يد جنود حكومة تركيا الفتاة، التي استلمت الحكم بعد تضعضع الحكم العثماني.

وبالرغم من تعايش الأرمن مع الأتراك لقرون عدة، واعتراف العثمانيين بهم كملّة دينية منفصلة لها كامل الحقوق، إلا أن الإمبراطورية أصبحت مع حلول القرن التاسع عشر أكثر تأخرا من غيرها من الدول الأوروبية، ولقبت بـ«رجل أوروبا العجوز»، وبالتالي أصبحت أكثر قسوة في تعاملها مع الأرمن، وأصبح انهيار نظامها، نتيجة ضعفها أمرا محتما، خاصة مع انفصال الكثير من مقاطعاتنا الشاسعة عنها، واستقلالها، أو بسبب انتزاع تلك المستعمرات منها قسرا، كاليونان ورومانيا، وصربيا وبلغاريا وغيرها، والتي أصبحت دولا مستقلة، غير تابعة للسلطنة العثمانية المريضة، وصاحب كل ذلك ظهور حركات انفصالية أخرى بين العرب والأرمن والبوسنيين، وهذا أدى لردود فعل عنيفة من الأتراك ضدهم جميعا.

realpage=0108xتوقف لطيف عن السرد، بعد أن امتلأت عيناه بدموع التأثر وأشعل سيجارة، ونظر إلينا بود وشرد قليلا، قبل أن يعود لأخذ رشفه من الكأس ويستطرد في حديثه عن المجازر، ثم ليتوقف ثانية عن الحديث، ويقوم من مقعده، ويتركنا بصمت إلى حمام الغرفة، ربما ليغسل وجهه، ويداري دموعه.

عاد بعد دقائق، وعلامات التأثر بادية عليه، وجلس، وأشعل سيجارة وأخذ رشفة من كأسه، وقال:

نسيت أن أخبركم بأنه عندما دخلت القوات البريطانية إلى إسطنبول كقوة احتلال في 13 يناير 1919 أثاروا المسألة الأرمنية مع السلطات المحلية، وسعوا لتقديم المتهمين الكبار باقتراف تلك المجازر للمحاكمة، وقاموا بالفعل بالقبض على عدد منهم، ومن ثبت تورطهم في المذابح، ولكن معظم هؤلاء تمكنوا من الفرار أو الاختفاء فتمت محاكمتكم غيابيا، وصدرت أحكام إعدام بحقهم جميعا، ولكن لم تتمكن بريطانيا من تنفيذ غير حكم واحد بحق حاكم بلدة «يوزغت»، الذي أدين بقتل مئات الأرمن في بلدته.

سكت لطيف فجأة، وطال سكوته، وشعرنا بنوع من الحرج، وأصدر «محمد كاش» ما يشبه الإيماءة لنا بأن نتفق معه ونغادر، ووجه حديثه للطيف قائلا بأن علينا ترك الجلسة والعودة في اليوم التالي وتكملة الحديث، فقد يكون متعبا. هزّ لطيف رأسه ويديه بحركة اعتراضية قائلا: لا، لا داعي لأن تذهبوا، فلم يتبقَ الكثير من هذا الجزء لأقوله... مأساتنا لم تكن فقط في الأرواح والجرحى والأرامل والأيتام والممتلكات التي فقدناها، بل وأيضا في أعز realpage=0109xذكرياتنا وتراثنا الديني. وهنا أخرج عبداللطيف بضع قصاصات ورق من جيبه وأكمل سرد القصة وهو يستعين بما دونه فيها من أرقام ومعلومات، وقال: التاريخ يشهد أنه في عام 1914 كانت هناك أكثر من 2500 كنيسة ودير أرمني على كامل تراب الدولة العثمانية، واليوم لم يتبقَّ منها سوى بضع عشرات. وفي السنة نفسها كانت هناك ألفا مدرسة أرمنية، تُمتلك وتُدار من قبلنا، واليوم لم يتبقَّ منها سوى 18 مدرسة، تقع غالبيتها في مدينة إسطنبول.

أنهى جملته تلك وقام ليذهب للحمام وهو يغطي وجهه بإحدى يديه، وسمعنا صوت نحيب يصدر من الحمام، فقمنا من جلستنا وغادرنا لكي لا نتسبب في إحراجه.

realpage=0110x

realpage=0111x

الفصل الثاني

حياتي الأولى

التقينا بعد ثلاثة أيام في المقهى ولم نكن قد حددنا الموعد مع لطيف بعد أن تركناه في الحمام وهو ينتحب، وجلسنا ننتظر قدومه، وعندما تأخر كثيراً اعتقدنا أنه ربما شعر بالإساءة عندما خرج من الحمام في المرة السابقة التي كنا فيها معا ولم يجدنا فقرر قطع صلته بنا، واتفقنا على الانتظار بضع دقائق أخرى فإن لم يحضر فسنغادر، وما أن هممنا واقفين حتى رأيناه خارجا من بيت سلم العمارة متجها إلى حيث كنا نجلس وهو يبتسم ويسمعنا صوت اعتذاره قبل أن يصل إلينا ويصافحنا طالباً منا أن نتبعه إلى غرفته في الفندق.

انشغل عنا لطيف قليلا في تحضير مشروبه المفضل، وطلب من صبي المطعم أن يحضر بعض المازات وإبريق شاي وفنجان قهوة أرمنية «مزبوطه» لمحمد كاش. التأم شملنا حول الطاولة الصغيرة، وأخذ لطيف رشفة من كاسه ووضعه تحت الطاولة كما اعتاد وقال، بعد أن أشعل سيجارته وأخذ نفسا عميقا:

تحسنت أوضاع والدي مع نجاح أعمال الورشة التي تحولت مع الوقت إلى مصنع صغير، وقرر بعد سنوات بيع نصيبه ونصيب جدي «فاهيه» لأحد أقاربه، والتحول بدلا من ذلك لتجارة الجلود، وأصبح تاليا من وجهاء الأرمن، أو هكذا كنت أعتقد أو أتمنى، realpage=0112xوانتقلت أسرتي للسكن في بيت جديد أكبر قيلا. وتزامن ذلك مع حلول الذكرى العاشرة للمجزرة والتشريد اللذين تعرض لهما الأرمن، وقد اختلطت سعادة والدي في ذلك اليوم بقدوم ابنه البكر، بذكرى مجزرة الأرمن الرهيبة.

عندما بلغت السادسة اختار والدي، وبعكس عادات أرمن المنطقة التي كما نقطنها في حلب أن يدخلني نفس المدرسة التي يرتادها بقية أطفال المنطقة، من مسلمين ومسيحيين، ورفض طلب أمي إلحاقي بمدرسة أرمنية كما كان تفعل الأسر الأرمنية، وأعتقد أنه ندم تاليا على فعلته تلك. كما أظن أن حرصه على توفير تعليم عربي، وغير أرمني لي نبع من رغبته في أن لا أشذ عن محيطي. ولكن مع زيادة شكوى والدتي، التي بقيت على أرمنيتها، وخوفها من أن أصبح غريبا عن بقية الأطفال الأرمن ولإرضائها وإدخال الاطمئنان لقلبها، فقد وعدها بأنه سيقوم بتنشئتي وتعليمي في المنزل، كما كان

يفعل والده معه، وسيكون رفيقي ويزرع في قلبي حب تقاليد الأرمن وعاداتهم. وحيث أن اللغة المتداولة في البيت كانت تختلط فيها أحيانا العربية بالأرمنية إلا أنه منع التحدث بغير الأرمنية.

دفعه حماسه وسابق تعهده لوالدتي، في أن يبدأ بتعليمي مبادئ الأرمنية في سن مبكرة، فكان يجلس معي مساء كل يوم تقريبا ويقضي وقتا طويلا في تدريسي وإرشادي لطريقة كتابة الأحرف الأرمنية، وكان يبذل جهدا كبيرا في ذلك، لكنه لم يكن ذا بال طويل ولم يكن مهياً لأن يكون مدرسا أصلا. وكانت والدتي تجادله كثيرا realpage=0113xفي تضييع وقته في تدريسي، وكانت تكرر قولها بأن مكاني هو في المدارس الأرمنية لكي يتم تعليمي اللغة بطريقة صحيحة، وكانت تعايره بالقول إن إصراره على إلحاقي بمدرسة عربية يعود لعدم ثقته بأننا سنعود يوما لأرضنا ومرابعنا ونستعيد حقوقنا، فكان يرد عليها قائلا إن هذا غير صحيح، وأنه يعلم يقينا أن الأرمن سيعودون لأوطانهم يوما، ولكن ليس في حياته.

كما كان والدي يحرص كثيرا على اصطحابي للكنيسة كل يوم احد، وخاصة خلال العطلة المدرسية، أما باقي السنة فكنت أتغيب عن المدرسة أحيانا أيام الأحد، وكان هذا يضايقه ولكنه لم يكن يبدي ضيقه لأحد، فقد كان أرثوذكسيا صارما ولم يكن اجتماعيا، ولم يختلط بالكثيرين خارج حلقة أسرته الصغيرة، إلا ما ندر، ربما بسبب عائقي العقيدة واللغة، ولهذا أراد أن أكون شخصا أكثر تسامحا وتصالحا منه مع نفسه والمجتمع، وهذا ما نجح فيه بصورة باهرة، وهو الأمر الذي ندم عليه تاليا..!

كنت طالبا جيدا في كافة المواد الدراسية، وكنت طفلا مرحا، ربما بسبب خلفيتي العرقية والدينية. كما كنت مسالما، ولم أتورط أبدا في أي عراك أو اختلاف مع أقراني.

كنت أنتظر صباح كل أحد بشغف لمصاحبة أبي وأمي للكنيسة، وأنا أرتدي أجمل ملابسي. وكانت أجواء الكنيسة تبهرني ورائحتها المميزة تجذبني للداخل، إضافة لسعادتي بما كان يمارس فيها من طقوس وصلوات وتراتيل وحركات الشمامسة والخوارنة. ولا أزال أشعر بحنين قوي لتلك الأيام، بالرغم من أنني لست متدينا realpage=0114xأبدا، وربما لأنه ليس في الكويت الآن مكان يشبه ما كنت أتمتع به في تلك المدينة والمجتمع الصغير.

كانت النقوش والرسوم المتنوعة لقديسي الأرمن، وكبار بطاركة الكنيسة تشدني، وكنت أعجب بملابس القساوسة وطريقة مشيتهم وتحركهم، وأغطية رؤوسهم الضخمة ولحاهم الكثة والمهيبة. وكنت أقلد حركاتهم في المساء في غرفة النوم، أمام المرآة. كما كنت استمتع بتفحص ملابس مرتادي الكنيسة من النساء والفتيات، بجمالها وأناقتها، مقارنة بما كن يرتدين بقية أيام الأسبوع. وفي يوم انتبه والدي لإصغائي العميق لعظة الخوري وتركيز نظراتي على وجهه، فضمني بحنان لصدره. وفي الطريق سألني عن بعض معاني ما كان يقوله القس، فسكت كالأبكم، دون أن أعرف كيف أرد عليه. وهنا استغرب سكوتي وسألني: ولكنك كنت تركز طوال الوقت على العظة، ولم تبعد عيناك عن القس، فماذا كنت تفعل؟ فقلت بكل براءة: أنا لم أكن أركز على كلامه، بل كنت انظر إلى حركات وجهه، وهو يلقي عظته، واكتشفت أنه عندما كان يتحدث فإن الذي كان يتحرك هو فكه الأسفل فقط،

أما رأسه بكامله فإنه يبقى ثابتا، لا يتحرك، فدفعني والدي بعيدا عنه وكأنه يقول لي: يا لك من طفل أهبل!

وهنا ضحك «لطيف»، أو كالوست، وشاركناه ضحكته المعدية.

وتابع كلامه قائلا: أيامي في المدرسة، كابن مهاجر أرمني لم تكن صعبة، فلم أكن أختلف عن الغالبية في شكلي وطباعي. realpage=0115xكما كان في المدرسة بعض المسيحيين العرب، ولم يكن هناك فرق بيننا، وبالتالي كان اندماجي بمحيطي سلسا وطبيعيا، ولم أشعر يوما بالتفرقة، وكانت درجاتي الدراسية جيدة، وغالبا أعلى من المتوسط.

أنهيت دراستي الابتدائية والمتوسطة في المدرسة نفسها قبل أن أنتقل للثانوية، وكانت أياما صعبة سياسيا، حسبما كنت أسمع في البيت والمدرسة، كثيرة الاضطراب في سوريا والدول العربية الأخرى، خاصة بعد أن قررت بضع دول عربية شن حرب على العصابات اليهودية المسلحة التي قدمت من أوربا وقررت تأسيس دولة ليهود العالم على أرض كانت تعرف تاريخيا بفلسطين. خسر العرب حربهم مع تلك العصابات، وأعلن عن تأسيس دولة إسرائيل، وسارعت كبرى دول العالم للاعتراف بها، وكان ذلك سببا في قيام المظاهرات واشتعال الاحتجاجات في كافة المدن السورية، كما ازدادت أعمال شغب، وتخلل كل ذلك مظاهر معادية لليهود السوريين. وكانت الهتافات ترتفع ضد شكري القوتلي وضد حكومة مردم بيك. وأدت الاحتجاجات والاضطرابات في نهاية الأمر، كما كان يتم تداوله في المقاهي، إلى إضعاف النظام السياسي السوري، وكانت تلك بداية الصدمة أو الأزمة السياسية السورية الأولى بعد الاستقلال عن فرنسا، فمع انتشار الفوضى لم تجد الحكومة بدا من إعلان حال الطوارئ، ولكنها تراجعت تاليا عنها، وقدمت استقالتها، لتمر البلاد بسلسلة من الأزمات الحكومية إلى أن تمكن خالد العظم من تشكيل حكومة جديدة، ولكن كل realpage=0116xذلك لم يمنع الضابط الطموح «حسني الزعيم» من القيام بانقلابه الشهير، وكان الأول في سلسلة من الانقلابات العسكرية في تاريخ سوريا الحديث، وما تبع ذلك من انهيار الهدنة اليهودية السوريّة.

توقف لطيف عن الكلام، وشعرنا بأنه قد تعب بالفعل. استأذناه في الانصراف، فلم يعترض. واتفقنا على اللقاء مساء الخميس التالي، ووعدنا جاسم العرج بأن عشاء الجلسة القادمة سيكون عليه وسيحضره من بيت أهله، فرحبنا جميعا بالفكرة.

realpage=0117x

الفصل الثالث

تسارع الأحداث

حين انتهينا من تناول ما أحضره جاسم من طعام من بيتهم، وكان لذيذا بالفعل، استعد لطيف لإكمال الحديث بتحضير لوازم الجلسة لنا ولنفسه، كأس شرابه وعلبة سجائره، ورأسي أرجيلة لنا، وجلس على كرسي من القش، واستطرد في إكمال رواية قصته المشوقة:

بعد إنهاء دراستي الثانوية استطعت، بواسطة صديق والدي، أن أحصل على وظيفة مدرس في مدرسة خاصة. بعد اختبار بسيط قررت الإدارة أن بإمكاني تعليم الأطفال مبادئ الحساب، إضافة للرسم والنحت. كانت المدرسة ابتدائية مختلطة، وكان المدرسون من الرجال والنساء، وكنا نلتقي جميعا صباح كل يوم في حانوت المدرسة، ونلتقي أحيانا أو نختلي بعضنا ببعض بين الحصص المدرسية. لاحظت أن زميلتي سارة، وهي مدرسة لغة عربية، تحيطني باهتمام خاص، وتتعمد البقاء في الكانتين لكي تنفرد بي وتتبادل الحديث معي. نشأ مع الوقت نوع من الود بيننا، ودفع هذا الود بنا لأن نلتقي خارج العمل، ومع الوقت تطورت مشاعرنا الودية لحب عذري جميل.

لاحظ الجميع تطور علاقتنا، وهذا ما دفع مدير المدرسة لاستدعائي يوما ليحذرني من أن الطريق الذي أسير فيه مع سارة realpage=0118xغير سالك، ومتعب، بسبب اختلاف العقيدة. وإنه يعرف والدها وأنه حتما لن يرضى به زوجا لابنته، وحتى إن قبل فليس قبل أن أغير ديني وأصبح مسلما، وإن فعلت ذلك فإن والدي سيجن جنونه، ولن يقبل بي إبنا. ولكن حبنا دفعنا للإصرار على تتويج علاقتنا بالزواج، وكان لنا ما اردنا في نهاية المطاف ولكن وقع الخبر لم يكن هينا خاصة على عائلتي بعد أن علمت بنيتي تغيير ديني. نجحت بصعوبة في إقناع والد سارة بعدم إعلان تحولي للإسلام على الملأ والسير به في الطرقات، كما كانت تقتضي الأعراف. وقلت له إن أسرتي نالها ما يكفي من الألم، وهي اعتبرتني في حكم المفقود، الذي قد يعود لها يوما أو لا يعود.

تزوجت وسارة على يد نفس شيخ الدين الذي أعلنت إسلامي على يديه، ولم تستغرق العملية أكثر من دقائق. عقد القران تم بعد صلاة المغرب في غرفة إمام المسجد القريب من بيتنا، وبحضور والد سارة وأقاربها، واخترت لنفسي اسم «عبداللطيف»، ربما إمعانا في العناد، أو إصرارا في التحدي، حيث كان بإمكاني اختيار اسم لا دلالة دينية له. انتقلت بعد الزواج للعيش في بيت أهل زوجتي وأصبحت «صهر بيت»، وهو نظام زواج ينتشر في بلاد الشام ويطلق الوصف على من تريده أسرة الفتاة أن يتزوج ابنتهم وتبقى في كنفهم، فيضمنوا بذلك كرامتها من أن تُهان، ولا تتعرض

للأذى على يد زوجها، ويصبح هذا العرف مقبولا جدا إن كانت إمكانيات الزوج المادية لا تسمح له بفتح بيت.

الجو الخانق الذي وجدت نفسي فيه، خاصة بعد ولادة ابننا realpage=0119xالبكر «بدر» وهو الشيء الذي وضع حدا لكل أحلام أبي وآماله بطلاقنا، وعودتي له أرمنيا أرثوذكسيا، دفعه وبقية أهلي لمقاطعتي تماما، والتوقف عن التواصل معي، ورفض وجودي بينهم، وهكذا لم أجد أمامي غير التفكير في الرحيل، وشجعني على الفكرة جدي «فاهيه»، شريك أبي، ربما رحمة به، وليس حبا بي، بسبب ما كنت أسببه لوالدي من إحراج ضمن محيطه، فخروجي من حلب سيقلل كثيرا من الضغوط عليه.

كان الطريق إلى دمشق، التي كان من الضروري المرور بها في طريقنا إلى بغداد، الأكثر أمانا بسبب ظروف الحرب، ومع هذا كان أكثر أمانا مما كنت التقطه من حديث الرجلين اللذين كانا يجلسان في المقعد الخلفي لنا. كنت أستمع لهما وكيف أن أحدهما يحتفظ بسكين سيستخدمها إن تعرض لهجوم من قطاع الطرق أو تجار الرقيق. وأعادني كلامه لذكرى عمتي آنيت مما قرأته عن خطفها في أوراق أبي وأحسست أن دوري في أن أخطف قد حل الآن.

كانت الحرب العالمية الثانية في عز أوارها، وكان الطريق يمتلئ بمركبات الجيش البريطاني، وبالرغم من منظرها المخيف وما كان يبدو على حمولتها من الجنود من إرهاق، إلا أنها كانت تُشعر من يراها من المسافرين بنوع من الأمان النسبي، بالرغم من أن تلك الحرب الضروس لم تترك منطقة في العالم دون أن تصل لها شرورها. كانت هناك نقاط تفتيش تقوم بدورها في تدقيق هويات المسافرين، ولكنها كانت في غالبيتها متساهلة في تعاملها.

لا أدري كم استغرق منا الطريق، ربما أكثر من عشر ساعات، realpage=0120xبما فيها فترات التوقف لأغراض أمنية أو ليقوم الركاب بقضاء حاجتهم، إلا أن ارتجاج الحافلة المستمر، الذي لم أعتد عليه من قبل، أصابني بدوار ورغبة في أن أرمي ما بجوفي. وزاد الطين بلة آلام مفاصلي التي لم تعتد الجلوس لساعات طويلة على كرسي صلب وصغير.

تصادف وصولنا لدمشق وقت الظهيرة والصلاة. وكان علينا تغيير الحافلة بأخرى تنقلنا إلى بغداد، التي تبعد عن دمشق مسافة تزيد عن 800 كيلو متر، في طريق غير ممهد في غالبيته، والسير فيه بحافلات أولاد «الفرد كتانة» متعب جدا، وسيستغرق الأمر منا يومين أو ثلاثة، وأن علينا تجنب شرب الماء، لغير الضرورة القصوى، فسائق الحافلة لن يقف في الطريق الصحراوي لأي راكب يود قضاء حاجته، إلا في الأماكن التي فيها حمامات عمومية، أو طبيعتها تسمح بالاختباء خلف كثبان الرمل، وقضاء الحاجة. كما كان علينا التزود بحاجتنا من الطعام من مطاعم الميدان القريبة من المحطة، فلا مطاعم يمكن تناول شيء فيها على الطريق الصحراوي.

كان الطريق أكثر من متعب وخاصة برفقة امرأة لم يتوقف نحيبها وسيل دموعها طوال الرحلة، وطفل يبكي وبحاجة للطعام والراحة والنوم.

وصلنا بغداد فجرا بعد معاناة طويلة، وكانت المحطة خالية إلا من بعض العمال وجمع من السكارى الجالسين على مقهى المحطة وأضواء أعمدة النور الخافتة تضيء على مخمور هنا، وشحاذ بلا مأوى هناك، لا يزال يأمل في تلك الساعة المتأخرة realpage=0121xأن يتصدق عليه من يبحث عن الأجر بمبلغ بسيط. كما كان بعض باعة اللبلبي والحلويات لا يزالون يأملون، وأيضا في تلك الساعة المتأخرة، أن يأتي من يشتري منهم ما تبقى في قدورهم من طعام، وهم مستلقون على الأرض بجانب عرباتهم التي كانوا يدفعونها بأيديهم.

تلقفت حقائبنا من سقف الحافلة، وسألت عن أقرب نزل صغير من المحطة، فدلونا على واحد قريب. كان وضعه مزريا مقارنة ببيت أبي في حلب، أو غرفة نومنا في بيت عمي عبدالرحمن، ولكن الإرهاق والحاجة لحمام والرغبة في النوم أسكت كل اعتراض داخلنا، ولم يترك لزوجتي ولي خيار التفكير بحال الغرفة التي كان فيها سرير واحد بالكاد يسع ثلاثتنا.

أفقت في اليوم التالي، بعد نوم عميق ربما استمر لأكثر من عشر ساعات، على ضجة حركة الطريق وأصوات الباعة في ذلك الميدان الصاخب بالحركة.

كان جو المدينة رطبا، لم يلائم منذ اللحظة الأولى صحة زوجتي، والتي بدأت بالسعال فور قيامها من النوم، وفتح نافذة الغرفة. نفسيتها لم تتحسن إن لم تزد سوءا، مع دخول كميات كبيرة من الغبار والذباب الغرفة، هذا غير الضوضاء الصاخبة القادمة من صيحات الباعة وحركة سيارات النقل والمواصلات العامة، وأدخنة الديزل. وهنا اكتشفت أنني أخطأت في إحضارها معي. كان يجب أن تبقى عند أهلها إلى أن أرتب أموري وأحصل على عمل، وأجد سكنا، ولكن ما العمل الآن؟

realpage=0122xخرجت من النزل، ومعي خطاب التوصية الذي أعطاني إياه جدي «فاهيه» الصادر لأخوين من أرمن بغداد، صاحبيْ ورش مشغولات فضية وذهبية. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن استدل على عنوان الورشة. وكانت الساعة قد قاربت الظهر عندما وصلت هناك.

لم أجد هناك غير شخص واحد، وتبين أنه أكبر الأخوين سنا. سلمته رسالة جدي، وأخبرته أنني مدرس رسم سابق، وإنني مولع برسم الأشكال الفنية والنقوش لـ»معلمي» الدهان في حلب الذين يقومون بتزيين بيوت أغنياء المنطقة وقصور أعيانها بالنقوش الفنية والرسوم. وإنني عملت لفترة مع بعض الصاغة وأنهم أعجبوا ببعض رسومي للحلي الذهبية والفضية. كما أن لدي مهارة لا بأس بها في تشكيل الصلصال، وحفر قطع الخشب، وهذا سيساعدني مستقبلا في صياغة الحلي بكافة أشكالها.

ارتاح «سافيم» لما سمعه مني وسألني متى يمكنني الالتحاق بالعمل فقلت له أتمنى فورا، إلا إن عليّ البحث عن سكن مناسب لأسرتي، حيث أقيم حاليا في فندق المحطة. طلب مني سافيم أن أحضر عائلتي وأسكن مؤقتا في قبو الورشة، أو الطابق السفلي من المبنى، فهو لا يحتاج لغير أشياء بسيطة، وبعض التنظيف ليكون ملائما، فتح درج المكتب وناولني بضعة دنانير عراقية، ومفتاح القبو الضخم والصدئ، وطلب مني تدبير أموري فيما يتعلق بمستلزمات السكن، وأن أبدأ العمل فور استقراري. خرجت وشعور بالراحة يكتنفني، فقد بدأت مرحلة جديدة من حياتي، وفي بيئة جديدة، realpage=0123xبعيدا عن منغصات الأهل ورفاق حلب، فهنا لا يعرف أحد شيئا عن ظروفي

الأسرية وسابق حياتي، وخلافي مع أهلي، ويمكن أن أبدأ حياة جديدة كليا، وأنسى حلب، بمن فيها.

نزلت بضع درجات فوصلت إلى قبو المبنى القديم للتأكد من صلاحيته لأن يكون بيتنا في الأيام القليلة القادمة، فبدا لي المكان ملائما، ويستحق أن يكون سكنا. ليس فيه من كلمة القبو شيء فهو يمثل الجزء السفلي من المبنى، وله شبابيك مطلة على الطريق، ولا يحتاج لغير التنظيف ولستائر ولبضعة أشياء بسيطة، والأهم من ذلك برودته النسبية المنعشة، ووصول الشمس إليه صباحا، كما أخبرني سافيم.

عدت للفندق فوجدت زوجتي في أسوأ حال، وطفلنا يبكي وهي جالسة أمامه دامعة العينين، لا تفعل شيئا لتهدئته. قبلت رأسها، ومسحت بيدي على شعرها، ولكنها أزاحت يدي وارتمت باكية على المخدة. استلقيت بجانبها وأخبرتها أنني حصلت على عمل وسكن مؤقت وأن الأمور ستكون بخير، ولكنها فاجأتني برغبتها في العودة ولو لفترة قصيرة لأهلها، وإنها ستبقى هناك ولن يطول ذلك كثيرا، وستعود حال استقرار الأمور معي، وإن بإمكانها العودة لحلب بمفردها مع ابننا بدر. رفضت طلبها، ورجوتها أن تأتي فقط وترى أين سنعيش مؤقتا، وترى الورشة وأصحاب العمل ومن بعدها تتخذ قرارها.

منظر القبو، بالرغم من وضعه المقبول، أثار استياءها، رأيت الخوف في عينيها قبل صوتها، ولكنها لم تقل شيئا، ولم تبد أي realpage=0124xاعتراض، واعتقدت أنها اقتنعت، ولكني اكتشفت في اليوم التالي إنني كنت على خطأ، فقد تبين لي أنها لم تتناول شيئا مما احضرته لها من مطعم المنطقة، وأنها كانت صامتة، ولكن صمتها لم يطل كثيرا حيث عادت وفتحت معي موضوع عودتها وابنها لحلب ثانية، ووجدت أخيرا أن من الأفضل لنا معا أن تعود لذويها مؤقتا، فربما تتغير نفسيتها وتشتاق لأيام حبنا الذي جمعنا يوما، وكنا شتات طرفين. حاولت محاولة أخيرة وأخبرتها بما ضحيت به من أجلها وكيف تزوجنا، متخليا عن ديني، وكيف سيكون الوضع لو علم أهلي بعودتها لحلب من غيري، لكنها أصرت على موقفها وقالت إن غيابها لن يطول كثيرا، فوافقت، بعد تردد لم يطل كثيرا، أن أدعها تعود، فربما هي على حق في شعورها، خاصة وأن غيابها سيتيح لي فرصة التفرغ لعملي الجديد والغريب، وسأحاول أن أتقن ما أقوم به، وأضيع فيه لأنسى مؤقتا ابني وزوجتي، التي ربما ستعود لعملها في المدرسة التي التقينا فيها لأول مرة. لا أدري كيف خطرت كل تلك الأفكار بخيالي.

الفصل الخامس

الرحيل إلى الكويت

مر الوقت سريعا وأنا منهمك في عملي الجديد، الذي كنت أتعلم فيه كل يوم شيئا جديدا. قضيت ما يقارب السنتين، وأنا منهمك في ذلك العمل المضني، وما كنت أكسبه كان يمثل شيئا في البداية، ولكن مع الوقت، تبين أنه ليس بالكثير، خاصة مع ارتفاع إيجار البيت الصغير الذي استأجرته، والزيادة المستمرة في أسعار المواد الغذائية، وهذا جعلني مترددا في الكتابة والطلب من زوجتي العودة، فما كنت أحصل عليه كان بالكاد يكفيني. كما لم تسمح ظروف الورشة بطلب زيادة فالمبيعات لم تكن جيدة دائما ولكن الخبرة التي كنت أحصل عليها يوما عن يوم في أعمال الورشة الدقيقة، استحقت العناء والصبر، ويبدو أن أصابعي كانت تستجيب للتدريب بسرعة.

في داخلي، ورغم شوقي لعناق زوجتي ورؤية ابني إلا أنني شكرت غيابهما، فهذا سهل الكثير من أموري. خاصة لقد يئست، أو رضيت أن أيأس من عودتهما، وأصبحت أقيم الآن في غرفة صغيرة، بدون مطبخ، وهذا ما كان بمقدوري تحمله من إيجار، ولم يكن بالإمكان لعائلة أن تعيش في مثل هذا الوضع، خاصة مع غيابي اليوم كله في ورشة أعمال الصياغة. كما ان سفر زوجتي السريع أزاح عني الشعور بالإحراج، فلم يعرف أحد ممن هم realpage=0126xحولي بتلك الحقيقة أو أنني متزوج بمسلمة وأن ابني لا يحمل اسما أرمنيا، وإنني فوق كل ذلك هجرت ديني ودين آبائي من أجل الاقتران بمسلمة. وكان محيط عملي في بغداد محافظا، والرفاق الذين كنت أختلط بهم كانوا جميعا من الأرمن، المتعصبين في غالبيتهم للمذهب، ولا أعتقد أنهم كانوا سيرحبون بي كثيرا بينهم لو علموا بتغيير دين، ولكن قلة اختلاطي بهم جنّبتني الكثير من فضولهم لمعرفة ظروفي الأسرية، وسبب تركي حلب والقدوم إلى بغداد واختيار العمل فيها.

في يوم شعرت أنني استحق تناول وجبة جيدة، بعد شبه صيام دام طويلا جدا، وشجعني على ذلك ما كنت قد وفرته من راتبي. ذهبت إلى ضفة نهر دجلة وتناولت وجبة سمك مسقوف كانت الأجمل منذ سنوات. ذهب بعدها للمقهى لتناول بضع استكانات شاي ثقيل، كنت بحاجة لها.

التقيت هناك صديقي «الحاج كريم، ولا أدري ما الذي دفعني في ذلك اليوم لأن أصغى وأرتاح لما كان يقوله. لقد سبق وأن التقيت بالحاج مصادفة في مطعم «لحم تكه» صغير قبل أشهر. وكنا نلتقي دائما في المكان نفسه، فظروفنا المادية لم تكن تسمح لنا بارتياد مكان أفضل. أخبرني الحاج كريم أنه لو كان في عمري ويمتلك مهاراتي لما تردد في السفر إلى الكويت والعمل هناك. سألته أين

وما هي الكويت، فقال القصة طويلة بس هي جارة العراق، وبحاجة إلى أيدي عاملة ماهرة وفي كل شيء.

لم يسبق أن سمعت بالكويت من قبل ولا بوجودها، وبالتالي realpage=0127xلم أكن أعرف كيفية الوصول إليها، ولم يستطع الحاج كريم إشباع فضولي، فهو لم يطأ أرض الكويت إلا مرة واحدة، ومرض فعاد إلى بغداد فورا. أخبرني بقية رواد المقهى أن طقسها وظروف المعيشة فيها صعبة. وعرفت أنها مشيخة صغيرة تقع على ساحل البحر، واكتُشف فيها البترول قبل الحرب العالمية الثانية، ولكن شركات النفط فضلت إغلاق الآبار وعدم استخراج البترول حتى انتهاء الحرب، وهذا ما حصل بالفعل، حيث بدأ تصدير أول شحنة بترول للعالم في العام 1946. وقالوا لي أن السفر لها هين من منطلق أن أبوابها مفتوحة للجميع، والحرارة فيها صيفا قاتلة، ولكن طريق السفر لها ليس بالسهل.

وجدت الكثير من المنطق في كلامهم، وفي اقتراح الحاج كريم، وبدأت بالفعل في تقبل فكرة ترك عملي في بغداد والهجرة ثانية لمنطقة غريبة أخرى.

لم أستطع النوم في تلك الليلة وانا أفكر في موضوع ترك عملي والاتجاه مرة أخرى للمجهول. فكرت في تاريخ أسرتي من جدي الأكبر إلى جدي ثم أبي وأنا وكيف انتقلنا للعيش من منطقة لأخرى ولا أدري أين سينتهي الحال بي قبل موتي.

لم يغالبني النوم إلا مع ساعات الصباح الأولى، وليس قبل أن أتخذ قراري النهائي بترك العراق والاتجاه للكويت، إلى مجهول آخر وغربة جديدة في حياتي.

تأكدت من السؤال أكثر، وخاصة الذين سبق لهم أن عملوا في الكويت أو بعض المطلعين في المقهى على أحوالها، أن مسألة realpage=0128xالسفر إليها ليست بتلك النزهة ولا بالسهولة. فطقسها حار جدا وتفتقد للكثير مما في العراق من وسائل راحة وتنوع في الطعام وتوفره، وندرة المياه، وخاصة الباردة، وشبه انعدام اللهو فيها، وغير ذلك من الأمور التي تجعل الحياة جميلة. وأن أهل الكويت يأتون للعراق لقضاء عطلات فيها، والاستمتاع بمناخها وجمال الطبيعة فيها، ويسعى الموسورون منهم لمصاهرة أسرها. كما أن السيارات التي تنقل الركاب من البصرة إلى الكويت قليلة، ويقل عددها في أشهر الصيف الحارة، وإن عليّ البقاء لبضعة أشهر إلى أن تتحسن درجات الحرارة الحالية ومن بعدها يمكنني الرحيل، خاصة وأن الطريق بين البصرة والكويت ترابي وغير واضح المعالم ويختفي تماما مع هبوب الرياح الشديدة، أو الغبار.

كان كلامهم محبطا ولكني ازددت إصرارا على الرحيل، خاصة وأن الحاج كريم، الذي كان يجلس في الطرف الآخر من الطاولة، كان يرسل لي إشارات، وهو يستمع لهم من زاويته المفضلة في المقهى، طالبا مني تجاهل كلامهم، والإقدام على تنفيذ قراري بالرحيل.

وفي يوم لم أعرف أكثر حرارة منه أخبرت صاحب الورشة أنني تارك عملي معه، وإنني ذاهب إلى الكويت. فاجأه قراري ولكنه تمنى لي التوفيق وقال لي أن بإمكاني العودة لعملي في أي وقت إن لم أوفق في الكويت. قدرت له طيب مشاعره وكرمه، وودعته، واتجهت إلى الكويت في اليوم

التالي، وكانت خطوتي تلك تمثل الكثير بالنسبة لي، ونقطة تحول أساسية في حياتي.

realpage=0129xتركت بغداد عصر يوم خانق الحرارة، بعد أن وضعت متاعي في حقيبة صغيرة، وأخذت مستحقاتي من عملي، واتجهت لمحطة القطار، فقيل لي أن الأفضل أن أسافر بالحافلة.

استغرقت الرحلة ساعات طويلة لم أتوقعها بسبب تكرار توقف الباص المستمر بين مدن وقرى الطريق الكبيرة والصغيرة، أو لأن أحد الركاب يود قضاء حاجة أو آخر يريد تناول وجبة. وصلنا البصرة ليلا، ونصحني سائق الباص أن أكمل مسيرتي للكويت فجرا، فهو أكثر الأوقات ملاءمة لرحلة الصحراء.

كنت أول من وصل لموقع تاكسي الكويت، وكان خاليا من أية سيارات، فجلست وأنا اشعر بالتعب على مقهى المحطة، وغالبت النعاس بتناول أعداد من استكانات الشاي «السنكين». قرابة الفجر وصلت سيارة تكسي، ترجل سائقها منها واتجه حيث كنت أجلس، واساريره تنفرج عن ابتسامة واسعة لم استطع فهم معناها أو سببها، وسألني إن كنت أود الذهاب إلى الكويت، فهززت رأسي بنعم، فقال أنه يريدني أن أكون أحد ركاب سيارته. استغربت من ذلك الترحيب، دون سابق معرفة، ولكني عرفت السبب تاليا.

أخبرت السائق أنني سأحاول أن أغفو على أحد مقاعد المقهى، وإن عليه إيقاظي متى اكتمل العدد المطلوب من الركاب، فهز رأسه موافقا، وبدون سؤال أمسك بقبضة حقيبتي وحملها معه ووضعها على ظهر سيارته الفورد القديمة والأنيقة في الوقت نفسه، التي كانت من النوع الذي تغطي ألواح خشبية رائعة جوانبها ولم يسبق لي أن رأيت مثلها، والتي بإمكانها نقل ثمانية ركاب، مع الأمتعة realpage=0130xعلى سطحها، وفي الجزء الخلفي منها، خلف مقاعد الركاب.

أكملت شرب استكانة الشاي، وحاولت النوم ولكن محاولاتي باءت بالفشل بسبب انشغالي بطرد جيوش الذباب الأسود التي تنافس الأخضر في بشاعتها، حيث كانت تستجيب لحركات يدي فتطير لتعود ثانية وتغطي وجهي وكامل سطح الطاولة الخشبية المهترئة، بقبيح أشكالها.

بعد أقل من نصف ساعة اكتمل الركاب عددا وبدأنا المسير، وكانت ساعة السيارة تشير للسادسة وعشر دقائق صباحا، ومع هذا كان الطقس حارا بشكل غير معقول، وساهمت الرطوبة العالية في جعلنا نشعر بضيق أكبر.

كان في السيارة ستة ركاب آخرين، أربعة رجال وامرأة وزوجها. طلب مني السائق أن أجلس في المقعد الأمامي إلى جواره. بعد نصف ساعة من المسير توقفنا فجأة في منتصف ما يشبه الطريق، وسط صحراء قاحلة ليس فيها ما يدل على الحياة. ترجل السائق من المركبة وأخذ ينظر يمينا وشمالا، وفجأة شاهد مركبة أخرى مسرعة في اتجاه مختلف قليلا، فعاد للسيارة وغير اتجاهه ولحق بها، وتبين لنا أن الضياع في ذلك الطريق ليس بالأمر المستبعد. بعد مسير ساعة دخلنا في منطقة متربة، وبسبب ثقل سيارتنا، بركابها وبأحمالها، ومع تخفيف السرعة غرزت السيارة في الرمال وكان

علينا الخروج منها جميعا عدا السائق والمرأة، ومحاولة دفعها لإخراجها من الرمال الناعمة، وهنا نظر إليّ السائق وقال ضاحكا: ها يا الأرمني، هسه عرفت ليش حبيت تجي معاي؟realpage=0131xفضحكت معه، فقد كنت فتى قوي البنية، وكان يخاف من عدم وجود أحد بين ركاب سيارته من بمقدوره مساعدته في إخراجها من الرمال، إن غرزت.

كانت مهمة إخراج السيارة من الرمال مهمة شاقة شاركنا جميعا فيها، فقد كانت درجة حرارة الرمل حارقة بالفعل، وكان علينا لف قطع قماش على أيدينا لنستطيع إزالة الرمال من حول دواليب السيارة الأربعة. بعد جهد أوصلنا السيارة لمنطقة ذات أرض صلبه بما يكفي. ولكن السيارة لم تسر بنا كثيراً لتعود وتغرز إطاراتها ثانية في الرمال.

وصلنا لمشارف الكويت، بعد ما يقارب الخمس ساعات أو أقل قليلا، طبقا لساعة السيارة الفورد الجميلة، واتجه السائق بنا، كما أخبرنا لوسط العاصمة، واكتشفنا أنها ساحة شبه مستديرة ولكن واسعة تحيط بها بعض المباني الجديدة، وتصب فيها الطرق القادمة من العراق وتلك القادمة من الأراضي السعودية.

realpage=0132x

realpage=0133x

الفصل السادس

العمل في الكويت

حملت حقيبتي من سيارة الأجرة وودعت صاحبها، ودفعني الفضول للتجول في داخل ساحة الصفاة فقد كنت بحاجة لأن أمشي قليلا بعد ساعات من الجلوس في سيارة الأجرة.

وزن حقيبتي لم يكن ثقيلا، وهذا شجعني أكثر على التجول في الساحة الترابية. وجدت في جانب منها باعة يفترشون الأرض يعرضون أشياء بسيطة للبيع كعلاقة مفاتيح ومحافظ نقود ومسابح وسكاكين بقبضات من عظام الحيوانات. وآخر يبيع ما يشبه الكبة الموصلية في قدور محمولة على عربات يد خشبية. وكان أكثر ما لفت نظري وأثار دهشتي باعة الجراد المطبوخ في صفائح تنك موضوعة على مواقد نار تحتوي على ماء مغلي، وكان الإقبال على شراء الجراد كبيرا ولم أعرف ما يعنيه لأهل الصحراء إلا تاليا بعد أن اعتدت على تناوله، وربما كنت أول أرمني في التاريخ يأكل الجراد ويستلذ بطعمه الشهي. كما مررت بجماعة من البدو وهم يعرضون منتجاتهم التي جلبوها معهم حتما من الصحراء من سمنة حيوانية رخيصة موضوعه في قرب جلدية، وحليب غنم مجفف ويسمى أقط، ونسميه في حلب كشك، إضافة إلى باعة الخراف وأصوافها ومنتجات أخرى. كما كانت في الساحة مواش من أنواع مختلفة ومجموعة من البدو بملابسهم الثقيلة والسوداء يفترشون realpage=0134xأرض الساحة يتناولون القهوة يتحدثون فيما بينهم، وكان التفرس في وجوه كل هذا الخليط أمرا ممتعا، وما كنت أراه كان جديدا بالنسبة إليّ، وشيئاً لم أعتد على رؤيته في حلب ولا حتى في بغداد. كما لم أرَ أية امرأة. تعبت من المشي في الساحة مع حقيبتي الصغيرة سألت أحد الباعة عن فندق قريب ورخيص فدلني على فندق «سميراميس» وقال بأنه يقع في منتصف الشارع الجديد، وأن أسعاره مقبولة.

بالرغم من كل ما كنت أشعر به من تعب وتكسر في عظام ظهري وقدمي إلا إنني لم أتمكن ليلتها من النوم في ذلك الفندق القذر بسبب كم الذباب المتناهي في صغره، الذي كان يملأ الغرفة، ويزعجني بقرصاته، وتسلله حتى لفتحات أنفي، وعرفت في صباح اليوم التالي أن الفندق ليس ببعيد عن مخازن تخمير الموز الواقعة على تلة في الجانب الغربي من الشارع الجديد. رأفة بحالي قررت الانتقال لفندق آخر، فدلوني على الفندق الجديد، وهو هذا الفندق الذي نحن فيه الآن، والذي اشتريت حق إدارته، بعدها بسنوات، وكانت أجرة الليلة فيه تبلغ 6 روبيات وقتها، أي أقل من نصف دينار في

الليلة بعملة اليوم، لغرفة لا يزيد حجمها عن مترين في مترين، وحمام مشترك مع بقية نزلاء الطابق.

نزلت من الفندق في صباح اليوم التالي، واتجهت للبنك البريطاني المطل على ساحة الصفاة، وفتحت حسابا أودعت فيه كل ما كنت أحمل من نقد، ولم يكن بالكثير، بعد أن حولته من العملة العراقية إلى الروبية. وانطلقت لحال سبيلي متقصيا وضع realpage=0135xمحال بيع الذهب والمجوهرات، وورشها، فوجدت أن كل شيء تقريبا يقع في الشارع الجديد وما حوله من أزقة وشوارع صغيرة أخرى، وخاصة في منطقة الأسواق القديمة حيث تكثر محال بيع الذهب. بالسؤال هنا وهناك اتضحت الصورة إلى حد ما، حيث تبين لي أن بائعي الحلي الذهبية في غالبيتهم إن لم يكن جميعهم كويتيين ومن الذين سبق أن قدموا للكويت من منطقة الإحساء، وتمكنوا مع الوقت من احتكار الحرفة والتعامل بها. مع توسع أعمالهم قاموا في البداية بالاستعانة بعمالة نصف ماهرة، وقدم هؤلاء من مدينة أصفهان الإيرانية، وربما كان بينهم أرمن، فإصفهان كانت دائما مركز أكبر تجمع للأرمن في إيران. وتبين لي أن هؤلاء غادروا الكويت تاليا إلى أمريكا دون العودة لوطنهم. وفي مرحلة تالية قدم العمال المهرة من العراق، وبالذات من طائفة الصابئة. تزامن وصولي مع بداية ازدهار تجارة الذهب، وخاصة مع تزايد أعداد الجالية الهندية التي بدأت أعدادها بالتكاثر، والذين كانوا يعتبرون الذهب خزين مدخراتهم، وكانوا يطلبون الحلي المشغولة بمهارة، ويدفعون جزءا كبيرا من رواتبهم مقابل الحصول عليها، وكان مطلوبا تلبية طلبهم، وهنا شعرت أنني وصلت الكويت في وقت مناسب.

عملت أول ما عملت مع تاجر من آل الصايغ، يملك محلا في أحد المباني وقريبا من مدرسة المباركية، وليس ببعيد عن البيت الذي رزق فيه الملك عبدالعزيز بن سعود بابنه البكر سعود، وحمل الشارع تاليا اسمه، وهو قريب جدا من «سكة عنزه».

realpage=0136xأصبح عملي ومنامي في الأشهر الأولى في مشغل صغير يقع على سطح قيصرية الفوزان. بعد فترة، ومع تزايد الطلب على عملي، طلبت من صاحب العمل أو «الحجي» ، كما كنا نناديه، أن يدفع لي عمولة على القطع التي كنت أقوم بصياغتها، فلم يرفض طلبي، فقد كان مسرورا بما كنت أؤديه من عمل طوال اليوم وبضع ساعات من الليل.

كسبت الكثير، وبسبب مصروفاتي القليلة جدا، بخلاف ما كنت أصرفه على الطعام، فقد تمكنت من توفير مبلغ لا بأس به خلال فترة قصيرة.

بعد ثلاث سنوات عمل مع آل الصايغ قررت تركهم، والاستقلال بعملي، وكانوا طيبين معي، كما لم يمانعوا من بقاء إقامتي على كفالتهم.

فتحت ورشة صغيرة في شقة من غرفة وصالة في قيصرية المعجل، في المباركية وقريبا من ساحة الصرافين وسوق الدهن، واستخدمتها مكان عمل وعرض مشغولاتي وسكني. كان صغار تجار وبائعي الذهب، الذين ازدادت أعدادهم مع استمرار انفتاح الكويت وتوسعها يأتون للشراء مني. وفي يوم زارني تاجر ذهب لبناني وتحدث معي مطولا عن عملي وفي نهاية حديثه اقترح علي التوقف عن مزاولة تجارتي بتلك الطريقة وأن الأفضل الدخول معه في بيع قوالب أو سبائك الذهب ومن

أوزان مختلفة، وأنه سيزودني بحاجتي منها. أخبرته بأنني سأفكر في ما اقترحه، وفي صواب عرضه، وسأخبره برأيي في اليوم التالي.

realpage=0137xأجريت بعض الحسابات، وحصرت ما جمعته من مال، إضافة لثمن ما لدي من حلي وقررت الدخول في المغامرة مع التاجر اللبناني، إن اقنعني بإجاباته على أسئلتي.

حضر اللبناني في اليوم التالي وبادرني بالكلام قبل أن أتمكن من توجيه أي سؤال له وقال: أعلم أنك متردد في ترك عملك الحالي. وأعلم أنك متخوف من الخسارة، وربما تخاف من توقفي عن تزويدك بحاجتك من السبائك، ولكني مصر على العمل معك. لا أعرف من في السوق ولا أرتاح للبعض، وسمعت عنك الكثير. لا أريد منك شيئا سوى أن تكون أمينا معي. سأزودك بما اعتقد أن السوق بحاجة له من سبائك الذهب ونقتسم الأرباح، أو الخسائر، بيننا بعد خصم مبلغ محدد من المبيعات كراتب وبدل معيشة وسكن. عليك أن تتخلى عن ورشتك الحالية، وتتخلص مما لديك من معدات لكي لا تعود لسابق مهنتك ثانية، وتكون متفانيا لمشروعك الجديد الذي لا رجعة سهلة منه.

روح المغامرة تغلب على حذري في نهاية الأمر، فدخلت معه في الصفقة، وتبين لاحقا أنه كان على حق فقد حققت الكثير، بعد أن تركت أعمال الورشة، وانتقلت للسكن في ملحق بيت في منطقة الصوابر القريبة، وفتحت محلا في الطابق الأول من قيصرية النصار لبيع الذهب، واستخرجت ترخيصاً له باسم كفيلي الطيب والكريم الحاج الصايغ.

سارت الأمور بشكل جيد لأكثر من سنتين، ثم دفعني التذبذب الشديد في أسعار الذهب للخروج من السوق بعد أن أصبت realpage=0138xبخسائر، ولكن ليس قبل ان أحقق لنفسي ولشريكي اللبناني مبلغا مجزيا من المال مكنني من شراء مطعم الدور الأرضي في هذا الفندق الذي نحن فيه، ومن أرباح المطعم تمكنت من شراء حق إدارة الفندق، الذي كان يمتلكه شخص كويتي كان يقضي جل وقته في مصر، وكان يريد بيع الفندق بأي ثمن ولأنني غير كويتي ولا يحق لي تملك أ ي عقار فقد عرضت عليه مبلغا شهريا أرسله له مقابل تخليه كليا عن الإدارة. كما قمت تاليا بفتح المقهى على السطح، ولكن بدون ترخيص.

لا أدري إلى متى سأبقى في الكويت، بعد أن أصبحت في الفترة الأخيرة ومع تعدد لقاءاتي بكم، وحديثي عن مسقط رأسي وأهلي، أحن للعودة إلى حلب ولابني وزوجتي. أنا هنا لا مستقبل لي. فمن المستحيل تقريبا أن أصبح مواطنا. كما أن هويتي ليست أرمنية، بعد ان دمرت ما بداخلي يوم تحولت عن ديني.

أطلق لطيف نفسا طويلا، مع نهاية آخر جملة في قصته، وشعرنا وكأنه أزاح هما كبيرا عن صدره وهو ينهي سرد مشوار حياته، والتزمنا الصمت جميعا، فلم يكن هناك شيء يمكن أن يضيفه، أو نضيفه. وفجأة خنقت العبرة لطيف ولم يستطع الوقوف لوداعنا فاضطررنا لمعانقته بصمت، وهو جالس.

غادرنا المقهى ولم نكن نعرف حينها أن هذا آخر لقاء لنا مجتمعين مع صديقنا عبد اللطيف الأرمني، الطيب.

realpage=0139x

الفصل السابع

الانشطار

تفرقت السبل بنا نحن الأربعة بعد تخرجنا من الثانوية، وكأننا كتلة صماء وانشطرت إلى شظايا، حيث اختار جسوم العرج العمل في الجمارك، أما المحمدان، كاش والثاني، فقد حصلا على بعثة دراسية، الأول ذهب إلى مصر لدراسة المحاماة أو هكذا كان يرغب، والثاني سافر إلى أميركا لدراسة الهندسة، وكان يوم وداعنا آخر عهدي بهما. أما جسوم العرج فقد استمر تواصلنا، وإن كان متقطعا.

وأما عبداللطيف فقد انقطعت صلتنا به، منذ أن توقفنا عن الذهاب إلى مقهاه، وتحققت نبوءة محمد الثاني من أن صلتنا بلطيف الأرمني ستتوقف بمجرد انتهائه من سرد آخر جزء في قصة حياته. وهذا ما حدث بالفعل فلم نره منذ يومها، ليس لشعورنا بأننا استنزفنا الرجل عاطفيا، ولا لأن لا شيء مشترك كان يجمعنا، ولكن لأن تلك العلاقة لم تكن يوما متكافئة أو طبيعية، لا سنّا ولا مركزا.

لم أرغب في تضييع سنوات أربع أو خمس في الدراسة في الداخل أو الخارج، وفضلت بدلا من ذلك أن أجد وظيفة مريحة تتيح لي مزاولة أي نشاط تجاري خلال فترتي العصر والمساء، والقيام في الوقت نفسه بمحاولة الالتحاق بإحدى الجامعات العربية أو الأجنبية وتكملة دراستي العليا بطريقة ما.

realpage=0140xعرف والدي بنواياي في العمل فعرض عليّ العمل لديه، ولكني رفضت بالرغم من الإغراء المادي الكبير، خوفا من أن أنجرف في التجارة وأنسى الدراسة، هذا غير ما كنت أتطلع إليه من سفر ولهو، وفوق ذلك رغبتي الملحة في تكملة دراستي العليا. وعندما يئس منّي عرض عليّ رأس مال مشروع جديد، وفكرة أن اعمل بمفردي أو أشارك صديقه «درويش» في عمله، ولكني رفضت هذا العرض أيضا.

تقدمت لشركة مطاحن الدقيق، التي كانت قد تأسست قبل سنوات قليلة، وكانت مقبلة على توسع كبير في أنشطتها، فحصلت على الوظيفة فورا، ولكني رفضت العرض الذي تقدموا به بعد أن تبين اشتراطهم إرسالي إلى ألمانيا للتدريب على تشغيل آلات الطحن، وإن الدورات ستكون قصيرة ومتقطعة، وجاء رفضي للعرض المغري بعد أن تبين لي أن ذلك سيشكل عائقا أمام طموحي في الدراسة الجامعية، التي تحديت والدي بأني سأكملها بأية طريقة كانت.

اتجهت بعدها لوزارة الصحة، وحصلت على وظيفة في مختبرات الوزارة المركزية، لا تتجاوز ساعات العمل فيها أربع ساعات في اليوم، وكان العرض مغريا والعمل مريحا، ولكن لم تعجبني روائح المختبر. وفي جلسة شبابية على البحر أخبرني صديق بأن هناك مصرفين يبحثان عن مواطنين للعمل بهما، ولا شيء يمنع من السؤال عن الوظيفة.

ذهبت في صباح اليوم التالي إلى البنك الأول وقدمت طلب realpage=0141xتوظيف، ثم ذهبت للبنك الثاني واخترت بعدها أقل العرضين سوءا، أو هذا ما اعتقدته حينها، فقد كان جو البنك مخيفا، فغالبية العاملين فيه كانوا من الهنود، واللغة الرئيسية المتداولة هي الإنجليزية التي لم أكن أتقنها، ولكني حزمت أمري، وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حياتي بالعمل في بيئة غريبة وجديدة، ومنها ارتبطت أحداث حياتي بعضها ببعض، من خلال عملي الجديد الذي أتاح لي ما كنت أرغب به من فرصة العمل في أي نشاط تجاري فترة العصر والمساء، وإمكانية الدراسة أيضا.

realpage=0142x

realpage=0143x

الجزء الرابع

realpage=0144x

realpage=0145x

الفصل الأول

وهذه قصة رجا

كان «رجا» في المطار يتناول طعام العشاء في المطعم الصغير الواقع في إحدى الزوايا، حيث اعتاد الجلوس بانتظار بدء نوبة عمله، عندما تصاعد التهليل والهتاف والتصفيق عند باب خروج القادمين. دفعه الفضول لترك السندويشة التي كان يتناولها على الطاولة والاقتراب من جمهور المستقبلين وسؤال أحدهم عن سبب تلك الضجة فقيل له إن الخارجين من البوابة هم ركاب أول طائرة مصرية تصل إلى الكويت بعد أن توقف الطيران من القاهرة وإليها بسبب حرب ما سمي بحرب العدوان الثلاثي على مصر عام 1956.

لم يستطع رجا إخفاء مشاعره بالسعادة وقام بحماس واضح بمشاركة المستقبلين في تقديم التهاني للقادمين من مصر، مصر العروبة، مصر عبدالناصر. عاد بعدها إلى طاولته فوجد أن نصف سندويشته، التي لم يكملها، قد اختفى.

يعمل «رجا» سائق سيارة أجرة في المطار، ويكسب جيدا من عمله، ليس لنشاطه فقط، بل وأيضا لأنه كان يقضي جل وقته في المطار، القريب من بيته، وتبين تاليا أن خلافاته من زوجته تجعله يفضل البقاء أطول فترة في المطار، هربا من مشاكله مع زوجته.

في أحد الأيام أقبل رجا على رفاقه، حيث يجلسون في خيمة «سواقي المطار» التي نصبت بشكل عشوائي في أحد جوانب موقف realpage=0146xالسيارات، وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه. جلس بعد أن صب لنفسه فنجان قهوة دون أن يقول شيئا. صمته الغريب أزعج أحد رفاقه فسأله بغيظ واضح عن سبب رفضه مشاركتهم فرحته، فقال بأن لا يتمنى الشيء لهم، وسكت دون أن يكمل! فزاد هذا من غيظهم وفضولهم، وإصرارهم على معرفة قصده، فقال لهم وهو يضحك بأنه نجح أخيرا في الانفصال عن زوجته، وترك البيت لها، وإنه أصبح حرا وغير مجبر للعودة إليها، وأن سيارته أصبحت سكنه حاليا، وسيستخدم خدمات وحمامات المطار إلى أن يتدبر أمره. أخبرهم أنه رفض خروجها من البيت الحكومي وفضل أن يخرج هو ويترك لها البيت، لأنه لا يريد من جهة استمرار سكنه في خيطان، ولا يريد طلاق زوجته لأنه إن فعل ذلك فإن اثنين من إخوتها سيطلقان شقيقتيه بالمقابل، كما سبق وأن هدداه بذلك من قبل.

وفي أحد الأيام غاب رجا عن عمله ولم يظهر إلا بعد بضعة أيام ليودع أصحابه ويخبرهم أنه حصل على وظيفة حارس مدرسة في وزارة التعليم، وأن الوزارة وفرت له سكنا في المدرسة، وبإمكانه في وقت فراغه التكسب من سيارة الأجرة التي سيستمر في الاحتفاظ بها. وقال لهم إن هذه الوظيفة مخصصة فقط للمواطنين، وأن الحكومة تمنح مزايا ورواتب معقولة لحراس المدارس لحاجتها لهم مع زيادة أعدادها وقلة من يرغب العمل بوظيفة حارس المقيدة شيئا ما لمن اعتادوا الحرية في الحركة والعمل والنوم! كما أن مشاريع أخرى بدأت تطلب عمالة وطنية مع زيادة دخل الدولة من النفط، بعد أن أصبحت هناك عشرات realpage=0147xآلاف الوظائف الجديدة المطلوب شغلها.

انتقل رجا للسكن في الملحق المخصص لحارس المدرسة، وتبين أنه مزود بأثاث معقول، مع مطبخ وحمام. وبالرغم من أن وجوده في المدرسة لم يكن مطلوبا طوال الوقت، بخلاف ساعة واحدة قبل فتح الأبواب صباحا، وساعة بعد انتهاء الدراسة، بخلاف ساعات العمل، إلا أنه كان يبقى أطول من ذلك بكثير في غرفته.

بسبب حسن خلقه وتعاونه مع الإدارة فقد لبت ناظرة المدرسة المصرية طلبه، وسمحت له بنصب خيمة أو بيت شعر صغير خارج غرفته في الساحة الترابية، حيث كان يلتقي فيها بأصحابه كل يوم تقريبا لتبادل الأحاديث وشرب القهوة. وقد وافقت الناظرة على نصبه للخيمة لاعتقادها أن ذلك سيجعله أكثر تواجدا في المدرسة وحولها، بدلا من الذهاب والعمل على سيارة الأجرة الخاصة به.

كان من عادة «رجا» الذهاب مع أصحابه إلى البصرة أيام العطل، مرة أو مرتين في الشهر، وكان سفره أحد مصادر متاعبه مع زوجته التي كانت تعارض تركها وحيدة. كما كانت ترفض الحديث معه أو السماح له بالاقتراب منها عندما يعود من السفر ليلا، شاكية من رائحة ما كان يتناوله هناك. وكانت تحرمه من ممارسة الجنس معها لأيام، وتدفعه عنها وهي تقول: ابتعد عني، أنت مخنز!

وقع رجا في البصرة في حب «فريدة»، البيرة العراقية الأصلية، والتي كان يستلذ بشربها، وكان حريصا على أن يكون معتدلا في ما يتناوله منها، وأن لا يفقد وعيه، مهما كانت المغريات. لم يشعر رجا يوما بالحرج أو بالتناقض بين حبه للبيرة والتزامه الديني، أو realpage=0148xهكذا كان يعتقد. كما كان يؤمن بأن صلاته وصيامه وأداءه للفروض ستغفر أو تمسح له ذنوبه، أيا كانت في نهاية الأمر.

تطورت علاقته مع البصرة وأصبحت أكثر من مجرد قطع طريق لساعتين لتناول بضع زجاجات بيرة وتدخين علبه سجائر كاملة، والتسكع على ضفاف دجلة، والعودة للكويت في اليوم التالي، وأصبح ورفاقه أكثر رغبة في تجربة أمور أخرى، وهذا قادهم لبيوت «الكواولة» أو بائعات الهوى من الغجر. وكان يستمتع كثيرا برؤية الفرحة في عيني من أصبح يطلق عليها «صاحبته» وهو يفتح منديله الأبيض أمامها في كل مرة يزورها، حيث كانت بالفعل تنبهر لمرآة تلك القطع الذهبية الصغيرة، بالرغم من ثمنها الزهيد، وكان رجا يشتري تلك القطع من صائغ ذهب أرمني في الكويت تعرف عليه بطريق الصدفة. ففي أحد الأيام وقع حادث تصادم سيارتين أمام بوابة المدرسة التي يعمل

فيها، بين مركبة تقودها امرأة أجنبية شقراء كبيرة السن وأخرى يقودها رجل تبين أنه سوري أرمني. كان الجو يومها ماطرا وشديد البرودة، وتأخرت الشرطة في الحضور وإجراء التخطيط التقليدي اللازم للحادث وكتابة التقرير للمخفر، فدعا رجا الرجل الأرمني لدخول خيمته وتناول القهوة لديه لحين وصول المحقق. عرف منه اسمه وعمله، وارتاح له. وعندما حضرت الشرطة تبين من حكمهم المبدئي على الحادث أن الأرمني «لطيف» هو المخطئ وإن على طرفي الحادث الذهاب للمخفر لتكملة إجراءات التحويل لشركة التأمين أمام محقق المخفر، وقال الشرطي للطيف بأن المحقق سيطلب منه كفيلا قبل الإفراج عنه وإن realpage=0149xعليه الاستعداد لذلك لكي لا يتم حجزه في المخفر. بان الانزعاج على وجه لطيف من سماع ذلك، وارتبك قليلا وأخذ يحك رأسه بأظافره في حيرة، فتدخل رجا وعرض الذهاب معه إلى المخفر وتوقيع الكفالة المطلوبة، وكان لتلك البادرة أثرها الطيب في نفس لطيف الذي ابتسم ممتنا وشكره، ومنذ يومها لم يتوقف عن التردد بين الفترة والأخرى على خيمة رجا حاملا معه فاكهة أو قطعة حلوى أو كيكة، وكان بالفعل يستمتع بجو الخيمة وطريقة تحضير وتقديم القهوة العربية، ورائحتها.

كان «رجا» يرى يوميا كيف كانت جموع التلميذات تأتي للمدرسة وهن سعيدات. وكان يحز في نفسه أنه أمي لا يعرف القراءة والكتابة، وهو الذي جعل المدرسة نفسها سكنا له! وفي يوم تغلب على خجله وذهب لمكتب ناظرة المدرسة وطلب منها مساعدته في تعلم ولو شيء من مبادئ القراءة وفك الخط، حسب تعبيره. أعجبت الناظرة به وبجرأته ورغبته في أن يتعلم ووعدته بأن تدرس الموضوع.

بعدها ببضعه أيام استدعت الناظرة رجا وأخبرته أن «الأبلة تفيدة» ستساعده كل يوم تقريبا، حسب ظروفها، لمدة نصف ساعة قبل بدء اليوم الدراسي، في تعلم القراءة، فزوجها يقوم بتوصيلها للمدرسة مبكرا، ولديها وقت فراغ طويل نسبيا قبل بدء عملها.

مثابرته، وانكبابه على حل الواجبات المنزلية واتباع تعليمات «الأبلة» وذكاؤه الفطري ساعدته كثيرا في سرعة تعلم الدروس في فترة قصيرة نسبيا، وكان يتباهى بذلك أمام أقرانه، وكان يقول لهم realpage=0150xإنه سيقرأ لهم قريبا شعرا نبطيا من نظمه.

كان رجا يميل كثيرا في البداية لقراءة عناوين الصحف لسهولة فهمها ولارتباط مواضيعها بمجريات أحداث يومه وما كان يدور من نقاش بينه وبين أصحابه عنها. وكان حماسه يزيد عندما يحضر لطيف للخيمة، حيث كان يستلطف حضوره وما يعرفه من أخبار وتاريخ بلاد الشام إضافة لإجادته اللغة العربية، خاصة عندما يحاول نطقها بالعربية الفصحى مقلدا صوت مذيعي إذاعة صوت العرب المصرية. وكانت المنطقة تغلي مع احتدام الصراع الإعلامي بين فرنسا وبريطانيا من جهة ومصر، التي أصبح يحكمها جمال عبدالناصر، من جهة أخرى.

قام رجا، مع نهاية السنة الثانية من عمله، وبعد أن أصبح يشعر بثقة بنفسه نتيجة تغلبه على سابق أميته بالطلب من مراقب حراس المدارس في وزارة التربية والتعليم ترقيته، بعد أن أصبح قادرا على القراءة والكتابة، ولديه شهادة صادرة عن ناظرة المدرسة تفيد بذلك. أجرى المراقب اختبارا

كتابيا بسيطا له، ووعده خيرا، بعد أن طلب منه أن يمر عليه بعد يومين.

عينت الوزارة «رجا» مسئولا عن حفظ سجلات الحضور والغياب لعدد من حراس مدارس المنطقة، وتقييم أعمالهم من خلال نماذج مطبوعة، ومنح مقابل ذلك علاوة وزيادة بسيطة في الراتب، مع حق استخدام سكنه. كما أعطي الخيار بين سيارة حكومية لاستخدامها في المرور على المدارس الواقعة ضمن نطاق عمله، أو علاوة انتقال مالية مقابل استخدام سيارته، فاختار السيارة realpage=0151xلأن بإمكانه الذهاب بها للبصرة بدلا من سيارة الأجرة الخاصة به التي تحمل لوحات «تكسي».

مع زيادة دخله الشهري وتحرره من الروتين اليومي أصبح أكثر إقبالا على السفر للبصرة، خاصة بعد أن تعرف على الراقصة السابقة ميادة، التي أجبرها تقدمها في العمر على التقاعد، وأصبحت تدير مقهى متواضع في حي الطرب، يقدم المأكولات الخفيفة إضافة إلى البيرة والشاي والقهوة. كانت ميادة تكبره سنا، ولكنها كانت تميل إليه، ونشأت بينهما مودة مع الوقت. كان رجا يعشق ملقاها ويهيم بجسدها المكتنز وشعرها الفاحم، ودقات الوشم على حنكها، ورائحتها المميزة. كان كثيرا ما ينام لديها كلما ذهب للبصرة كل ليلة خميس تقريبا ويغادر عادة مساء الجمعة أو مع ساعات فجر السبت ليصل المدرسة قبل الجميع ويفتح أبوابها.

وفي أحد الأيام، وهما مستلقيان على الفراش قال رجا لها بأنه بدأ يشعر بتقدمه في العمر وبالتعب من قيادة السيارة كل أسبوع من الكويت للبصرة والعودة في اليوم التالي، وإنه محتار في أمره ولا يعرف ما يريد. أمسكت ميادة بيديه بين يديها ورفعتهما لشفتيها وقبلتهما بشوق وهي تنظر إلى عينيه وقالت له أن يطلب منها ما يشاء، وستلبيه له. شجعته كلماتها فقال لها متحمسا، دعينا نذهب للصالة ونشرب كأس محبتنا وأخبرك بما أريد.

جلسا يتحدثان لأكثر من ساعة ورجا متردد في مفاتحة ميادة بما يدور في باله، وكاد فضول الأنثى أن يقتلها وهي تنتظر أن يخبرها ما في باله، وهو ينتقل من قصة لأخرى وهو يرتشف كأس realpage=0152xبيرة تلو الآخر في محاولة لتملك الشجاعة في قول ما نوى عليه. بعد تردد طال قليلا غالب رجا خجله في نهاية الأمر وقال لميادة بأنه، كما تعرف جيدا، سيبلغ الخمسين قريبا، وليس له ذرية ويحلم بولد يعتني به في آخر حياته ويحمل اسمه ويعز قبيلته. توقف عن الكلام عندما رأى الدموع تطفر من عينيها عندما قال ما قاله. أحس أنه جرح أنوثتها بكلامه، فهي قد تجاوزت سن الإنجاب وليس بإمكانها أن تعطيه ما يريد، وما يقوله يعني الفراق. قرأ ما كان يجول بخاطرها، فمد يده ومسح دموعها بحنان، فطلبت منه أن يستمر في كلامه. فقال بأنه سيبقى يقدرها ويحبها، ولكن لم يمتلك الشجاعة لأن يقول بأنها أول حب في حياته، وعندما تذكر ذلك أحس أنه غير قادر هو الآخر على مغالبة عواطفه وكبت دموعه. قبلته ميادة ومسحت ما انساب منها على خدوده وطلبت منه أن يقول لها ما في خاطره. فنظر في عينيها ورأى كم هي طيبة وضعيفة في الوقت نفسه، فكيف بإمكانه التسبب في جرح مشاعرها، ولكنه شعر إن هذه فرصته ولن تكون هناك غيرها، فجمع شجاعته وقال إنه يريد منها أن تبحث له عمن تقبل به زوجاً شرط أن تكون فتاة صغيرة، وإن عليها البحث عنها، خارج محيطها. نظرت «ميادة» له مطولا، وأحس أنها ستبكي لا محالة فوضع يده على فمها، وقال

بأنه سيبقى لها ولن يتركها، وأنه يريد فقط من تنجب له ابنا، واعتذر لها إن تسبب كلامه في جرح مشاعرها.

أزاحت يده من عن فمها وغالبت مشاعرها، وقالت له باقتضاب واضح بأنها ستسعى له وستساعده في إيجاد طلبه.

realpage=0153x

الفصل الثاني

الحياة الجديدة

وصل رجا صباح يوم جمعة، حسب وصف ميادة، إلى بيت طيني يقع في منطقة أبو الخصيب، وهي من نواحي البصرة المعروفة، وأوقف سيارته أمام باب البيت. فتحت الباب صبية لا يتجاوز عمرها العشر سنوات، وطلبت منه الدخول، دون أن تسأله من يكون، وبدا واضحا إنها كانت وأهلها يتوقعون قدومه. قادته الصبية لغرفة صغيرة، ودعته للجلوس على المفارش الموضوعة على الأرض، والتي ربما تستخدم أيضا للنوم عليها، حيث لاحظ أن ليس في البيت غير غرفة واحدة، ومطبخ خارجي وفناء صغير تتراكض فيه بضع دجاجات.

ما هي إلا لحظات حتى دخلت عليه امرأة كانت يوما ذات جمال، ولكن قسوة الحياة وصعوبة العيش والعمل أثرا فيها كثيرا. كانت تصحبها فتاة متوسطة الطول والجمال ولكنها تمتاز بعينين خضراوين جذابتين لم ير رجا مثلهما من قبل، سلبتا لبه منذ اللحظة الأولى، هذا غير بشرتها البيضاء.

جلست الفتاة على ركبتيها بجانبه في خفر، وهي تدني عليها ثوبها، ولم تنبس بحرف، فتكلمت أمها قائلة أن ابنتها تستحي من الأغراب، وهي صغيرة فيجب ألا يؤاخذها.

كسر «رجا» الصمت، وتحدث عن نفسه ذاكرا اسمه، وظروف realpage=0154xمعيشته وعمله الجديد، ومقدار ما يكسب، وأنه سيفتح لزوجته بيتا، وانه كان متزوجا من قبل وطلق زوجته، وليس لديه أولاد ويتمنى أن يكون لديه الكثير منهم. وأنه يمتلك سيارتين، واحدة للأجرة وأخرى لاستخدامه الخاص، وهي في الخارج. لم تعلق المرأتان على ما قال بشيء غير الشكر والحمد، وأخبرته الأم ان اسمها «جميلة» واسم ابنتها «صافية».

أخرج رجا من جيبه منديلاً أبيض فتحه واخرج منه بضع قطع ذهبية، سبق وأن حاول شرائها من صديقه عبداللطيف الأرمني، ولكن هذا رفض أن يقبل منه شيئا مقابلها عندما علم إن الحلي ستكون الشبكة التي سيقدمها، أو هدية الخطوبة التي سيقدمها للفتاة العراقية التي سيتزوجها. قدم المنديل بما فيه للأم، فردت هذه يده بلطف قائلة أنها ستقبل هديته بشرط. بهت رجا قليلا وقال لها: أنا أقبل الشرط قبل أن أسمعه، فقالت: لا، من المهم أن تسمعه. واستطردت قائلة، بعد أن طلبت من ابنتها الصغيرة مغادرة الغرفة، وأبقت صافية معها: نحن من أسرة فقيرة، وزوجي توفى بسبب مرض عضال أصيب به، ولم يترك لنا شيئا غير هذا البيت، كما أُصيب ابني البكر حمزة بنفس المرض

وتوفى بعد وفاة والده بعام. قالت له إنها لا تعرف أباها، ولكنها تعرف أن أمها كانت أرمنية الأصل، وكانت تحكي لها أحيانا، عندما كانت ذاكرتها تسعفها، قصصا عن قريتها في تركيا التي هربوا منها، وعن مزارع التفاح وبساتين القرية وكنيستها وأعياد قومها. وكانت تقص عليها ما بقي عالقا في ذاكرتها عن أبيها وأمها وأخيها. كما أخبرتها، وبعد أن كبرت في العمر، وقبل وفاتها، كيف تم اختطافها وهي صغيرة، realpage=0155xيوم كانت برفقة أخيها. وانها لا تزال تتذكر كيف تم ربطها بخاطفها بقطعة قماش بعد أن تم ردفها خلفه على الحصان، وكم كانت آلام خواصرها ورأسها شديدة. وأخبرتها عن البيت الكبير الذي وضعوها والفتيات الأخريات فيه، ونحيبها المرا والعالي. وكيف منعوهن من مغادرة البيت الكبير، والرجال المسلحين الذين كانوا يقومون بحراسة بواباته طوال ساعات الليل والنهار. وأخبرتني أنها تعرفت على الكثير من الفتيات في ذلك البيت وغالبيتهن كنّ من الأرمن، والبقية أشوريات ومن طوائف مسيحية أخرى. وأخبرتها إن أعدادهن كانت تزيد وتتناقص مع حركة الخطف والبيع. وقالت لها أمها وهي تبكي إن تاجرا لم تعرف جنسيته، لجهلها في ذلك الوقت بأية لغة غير الأرمنية ولصغر سنها، اشتراها من خاطفيها بعد أن اختارها من بين عشرات الفتيات بعد أن أتم استعراضهن أمامه. وأنه قام بإجراء فحص على أسنانها وتلمس شعرها، والاطلاع على أجزاء أخرى من جسدها، للتأكد، قبل دفع الثمن، من صحتها وعدم إصابتها بأية أمراض جلدية أو ما شابه ذلك. وإنها عانت الكثير حين أنجبتها، فقد كانت في السادسة عشرة من العمرتقريباً، وكانت قبل أن تنجب طفلتها الأولى والوحيدة تعمل شبه خادمة في بيت الرجل الذي اشتراها، وقالت لها بأنها ستموت وهي لا تعرف من الذي نام معها في تلك الليلة وحملت منه، فقد هجم عليها رجل وهي نائمة ونال منها في الظلام، دون أن يبالي بصراخها.

اعتذرت جميلة لرجا، وهي تمسح الدموع التي كانت تنهمر من عينيها، واضطرارها لسرد كل التفاصيل، ليس فقط لأنها تحب ابنتها كثيرا وشرطها الوحيد هو أن لا يقوم يوما بتعريضها لأية إهانة، realpage=0156xوالسخرية من أصلها، فمن يراها الآن أمامه هي التي ستكون له زوجة، وإنها لم تفرض نفسها عليه، بل هو الذي جاء لبيتهم طالبا مصاهرتهم. بل قالت له كل ذلك أيضا لسبب آخر يتعلق بها. فهي لم تروِ يوما لأحد ما أخبرتها به أمها، غير بعض التفاصيل البسيطة لـ «صافية» التي تعرف أصول جدتها. ولا تعرف لم قررت أن تحكي له كل ما تعرف عن تاريخ أمها وأصولها، فقد ينفره هذا منهم ويدفعه لتغيير رأيه في الزواج من ابنتها، إلا أنها كانت مجبرة على أخذ المخاطرة والحديث أمام ابنتها عن أمور لم تعرفها من قبل لكي تعرف مستقبلا ما أخبرتها به. وأنهت جميلة كلامها بالقول إنها ارتاحت له قبل أن تراه يوم حدثتها قريبة زوجها عنه كثيرا، وأنها تقبل به زوجا لابنتها متمنية أن لا تتعرض لأي نوع من المعايرة مستقبلا في ما يتعلق بأصلها، فيكفي أنهم أناس مستورون لم يمدوا يوما يدهم لأحد من قبل، بالرغم من صعوبة معيشتهم وقلة مواردهم.

أطلق «رجا» نفسا عميقا وشعر بالراحة، فقد كان يتوقع شرطا أكثر صعوبة وقسوة قد لا يكون في مقدوره تلبيته.

ابتسم رجا بامتنان واضح ومد يده بالمنديل ثانية لجميلة وهو يقول: أنتي و«صافية» على رأسي، وستكون دائما في الحفظ والأمان، وشرطك مقبول وأنت محقة فيه.

نالت هديته الاستحسان في عيني الأم وابنتها، وما أن انتهى من شرب الشاي حتى استأذن في الانصراف، وقال إنه سيأتي في الأسبوع التالي بصحبة من سيعقد قرانه على صافية، وسيحضر معه هدايا، أو صوايغ، للجميع.

realpage=0157x

الجزء الخامس

realpage=0158x

realpage=0159x

الفصل الأول

ناصر وسعد أخضر

التقيت بالأمس جسوم العرج بعد انقطاع دام أكثر من شهرين. لم نتوقف عن الضحك ونحن نستعيد ذكرياتنا ونبدي شوقنا لتلك الأيام الخالية من أي نوع من المتاعب والمسؤوليات. لم يطل لقاؤنا كثيرا، افترقنا دون أن نتفق على لقاء قريب.

كان يوما حارا ومغبرا من أيام شهر يوليو من منتصف العام 1975، ويوليو هو أكثر شهور السنة طولا وحرارة، وغبارا. عندما حضرت إلى البنك في صباح ذلك اليوم كنت أشعر بتثاقل كبير، على غير عادتي، وبعدم الراحة، وكأن شيئا ما يكتم على أنفاسي ويمنعها من الخروج، وإن خرجت من صدري فبتثاقل.

لم أكن أعرف سبب عدم شعوري بالارتياح في ذلك اليوم، وهو شعور غريب لم أعهده من قبل. لم يطل انتظاري كثيرا، فقد كان توجسي في مكانه. كنت غارقا في عملي عندما وجدت أحد فراشي البنك، الذي أصبحت رئيس دائرة فيه، يخبرني بأن رئيس مجلس الإدارة يطلب مني التوجه نحو مكتبه لأنه يريد مقابلتي. هززت رأسي بأن الرسالة وصلت، فما كنت أخافه أو أتوقعه من سوء طالع قد جاء بخطى حثيثة.

لم أغادر مكتبي فورا بل جلست ساهما أفكر بما يمكن ان يطلبه الرئيس مني، فهو نادرا ما يحضر إلى البنك صباحا، ولا realpage=0160xيتدخل ابدا في عمل الإدارة، ويترك كل شيء لمدير عام البنك، الاسكتلندي العتيق، المعروف بدهائه. وما علاقتي أنا برئيس مجلس الإدارة.

تركت مكتبي بتثاقل أكبر، ولأول مرة أصعد درج البنك إلى الطابق العلوي ببطئ شديد وما أن دخلت مكتب الرئيس حتى فوجئت بوجود أكثر من عضو من أعضاء المجلس هناك.

بعد سلام مقتضب طلب مني الرئيس الجلوس على مقعد قريب، وبدون مقدمات طلب من أن أشرح له ولزملائه الأعضاء الإجراءات التي تقوم بها الجهات الحكومية والجهات الأخرى ومنها البنوك عند وفاة مواطن أو مقيم. فقلت له بكل ثقة، وأنا مدرك تماما أنه يعرف الجواب، بأن حصر إرث أي متوف لا يتم ولا يقبل من وزارة العدل إلا بعد قيام الأخيرة بإرسال كتب لعدة أطراف ومنها

الشركات المساهمة والبنوك وسؤالها عما إذا كانت لدى أي منها ممتلكات أو أسهم وسندات أو أرصدة دائنة أو مدينة، باسم الشخص المتوفى. وبعد استلام كافة الردود تقوم وزارة العدل بحصر الإرث وتوزيعه على الورثة، أو ترك موضوع التوزيع لهم.

ابتسم الرئيس وشكرني على شرحي المقتضب والواضح، ثم قام بفتح أحد أدراج مكتبه وأخرج ورقة وسلمني إياها طالبا مني قراءتها، تبين لي بعد الاطلاع عليها أنها صورة كتاب موجه من مصرفنا إلى وزارة العدل الكويتية، ويحمل الكتاب توقيعي، أذكر فيه أنه لا توجد للمرحوم «جالوست سيروج» أية حسابات أو ودائع في البنك.

realpage=0161xوعندما تأكد الرئيس من أنني أعرف الكتاب ومضمونه، وإنني من وقعه، فاجأني بإخراج كشف حساب البنك، المميز بلونه الأصفر وشكله المعروف لي جيدا، من نفس درج المكتب وطلب مني مقارنة اسم صاحب الحساب بالاسم الذي ورد ذكره في كتابنا لوزارة العدل، فأكدت له بأن الاسمين لنفس الشخص، فاستطرد الرئيس قائلا إن هذا العميل توفى قبل أشهر تقريبا، وجاء أهله من سوريا لحصر تركته، وأنهم صدقوا ما جاء في كتاب وزارة العدل الذي يفيد بعدم وجود أية حسابات لقريبهم، من أي نوع

كان، في أي من المصارف الكويتية، ومنها مصرفنا. إلا أنهم وجدوا في اليوم التالي بين أمتعته وحاجياته الخاصة كشف البنك الذي يناقض شهادة وزارة العدل التي أعطيت إليهم بناء على ردود البنوك على طلبها، وعندما قاموا بمراجعة الوزارة قامت الأخيرة بتسليمهم كتاب البنك الذي ورد فيه عدم وجود أرصدة للمرحوم، والذي على أساسه قاموا بإصدار شهادتهم.

كان تلك صدمة غير سارة أبدا بالنسبة إليّ، فواضح هنا أنني أكدت بكتاب رسمي صادر من البنك وموجه لوزارة العدل، ما يفيد بعدم وجود أية حسابات، من أي نوع كان، في سجلاتنا باسم «كالوست سيروج»، ثم يظهر لي بجلاء أن العكس هو الصحيح، وأن هناك بالفعل حساباً لذلك الشخص المتوفى ورصيداً يزيد قليلا عن عشرين ألف دينار! فأين ذهب المبلغ؟ وما هو تفسير هذا التناقض بين شهادة مصرفية موجهة لجهة رسمية تفيد بعدم وجود حساب، وكشف الحساب الذي يقول عكس ذلك؟

realpage=0162xالحالة التشاؤمية التي كنت عليها صباحا، وتحسبي لوقوع ما لا يُحمد عقباه قد وقع، وتوقعي ذلك ساعدني إلى حد كبير على تقبل الصدمة، حيث لم يظهر عليّ، وأنا أواجه الرئيس وبقية الأعضاء، ما يدل على ارتباكي أو أن في الأمر مفاجأة لي.

طلبت من الرئيس، بكل ثقة ورباطة جأش، أن يمهلني بعض الوقت لأقوم بالبحث في الموضوع. نظر إليّ بجدية واضحة وقال: يا ناصر، هل لك علاقة بهذا الموضوع؟ كان الاتهام صريحا وواضحا في لهجته، فقلت له: «لا يا عمي، أنا بعيد عن الموضوع، ولكن طالما أنني من وقع الكتاب فأنا متهم إلى أن تظهر براءتي، وأرجوك أن تمهلني قليلا، وسأعود لك بالنتيجة بأسرع ما يمكن». ولكن ثقتي بما كنت أقوله تناقضت تماما مع حقيقة ما كان يعتمل بداخلي من قلق حقيقي.

خرجت من مكتب الرئيس وأنا في حيرة من أمري! كيف قمت بتوقيع رسالة رسمية بدون التيقن من مضمونها؟ وكيف وثقت بمن أكد لي صحة مضمون الكتاب فوقعته بدون مراجعة، وهل هناك كتب أخرى مماثلة قمت بتوقيعها لحالات مشابهة، وماذا لو لم يظهر الفاعل الحقيقي؟ وغير ذلك من الأسئلة التي أصبحت تدور برأسي ولا أجد لها جوابا. ولأول مرة تصبح درجات السلم نزولا أكثر صعوبة منها صعودا. وفجأة توقفت في منتصفه ونظرت لاسم العميل، للمرة العاشرة ربما، في رسالة وزارة العدل وكشف حساب البنك وقلبت نظري واستغربت كيف أنني لم أنتبه منذ اللحظة الأولى أن الموضوع يخص صاحبنا «عبداللطيف الأرمني»، الذي realpage=0163xعلمت الآن فقط أنه توفي! والسبب الذي جعلني لا أنتبه للأمر منذ الوهلة الأولى ربما يعود لرهبة الموقف الذي كنت فيه، ولحقيقة أن صاحبنا المرحوم فتح الحساب بجواز سفره الذي يحمل اسمه الأرمني، قبل أن يتحول للإسلام، ولم يقم، لسبب ما، بتغيير اسمه في جواز السفر بعد ذلك. وهنا غمرني شعور عميق بالحزن على ما سبق واكرمنا به عبداللطيف لشهور عدة في مقهاه وفندقه، ولطفه معنا، وشوقنا لسماع قصته، وبعد كل ذلك نسيناه، أو دفعتنا مشاغلنا لأن ننساه، ولا نودعه بما يليق، ثم يغادر الحياة ولا أحد بجانبه، ولو كنا على صداقتنا معه لربما فعلنا شيئا من أجله، ولكنها الحياة. قلت ذلك لنفسي وأنا أهز رأسي ذات اليمين وذات الشمال، كما يفعل زملائي الهنود في البنك، زاما شفتي.

أكملت النزول بتثاقل واضح، وجلست في مكتبي واجما أفكر في كيفية كشف غموض هذا الموضوع المحير بالفعل. وكنت قد ترقيت لوظيفتي المرموقة مؤخرا، وسبق أن حزت ثقة رؤسائي، فكيف أحافظ على هذه الثقة وهذه الفضيحة الجديدة تلاحقني.

تركت معاملات البنك لمساعدي، وفوضته بتوقيعها، وأخبرت السكرتيرة بأني سأتغيب عن عملي لفترة، لم أحددها، وحملت كشف الحساب وصورة رسالتي لوزارة العدل وذهبت لمدير عام البنك، وشرحت له الوضع، وطلبت منه أن لا يخبر أحدا بالموضوع، لكي لا يأخذ الجاني حذره ويتلف المستندات، أو يهرب مثلا. كما طلبت منه السماح لي بالاطلاع على كامل أرشيف البنك، المحفوظ في مخازن منطقة العارضية، خرجت من realpage=0164xعنده بعد لحظات بعد أن وافق على كل ما طلبت.

وفي العارضية اكتشفت أن معاملات البنك محفوظة بترتيب يومي، في أدراج خشبية مكشوفة موضوعة على أرفف حديدية، ويغطيها كلها كميات كبيرة من الغبار المتراكم، بسبب سوء نظام العزل في المخزن غير المكيف أصلا، ولم تكن المهمة سهلة في جو حار ومغبر.

بعد بحث مضن استغرق يومين ظهرت الحقيقة أو الطامة الكبرى حيث تبين أن «سعد أخضر»، وهو الموظف الكويتي الوحيد في الإدارة التي كنت أشرف عليها، والذي اشتهر بذلك الاسم بين أصحابه وزملاءه، بسبب لون عينيه الخضراوين، هو المسؤول عن استلام كتب وزارة العدل وتحضير الردود عليها، وتقديمها لي لتوقيعها وإعادة إرسالها للوزارة. وهو المسؤول أيضا عن مسك سجل الحسابات الدورمنت، أو الجامدة التي ليس عليها حركة، وبالتالي هو المتهم حاليا. ولكن بالعودة لكشف حسابه المصرفي لم ألاحظ وجود أية إيداعات، أو حركات غير عادية على الحساب يمكن أن تثير الريبة، غير ما كان البنك يودعه بحسابه من راتب شهري.

تتبعت حركة حساب «كالوست سيروج»، أو «عبداللطيف الأرمني»، الذي انقطعت صلتنا به منذ سنوات، بعد أن تفرقت بنا السبل سفرا ودراسة وعملا، منذ تاريخ فتح الحساب وحتى تاريخ وفاته المفترض، وقمت بمراجعة كشف حسابه للسنة السابقة لوفاته، والتالية لها، فوجدت أنه كان قلما يسحب شيئا من الحساب، realpage=0165xفربما كان يعتمد على مبيعات المطعم وإيرادات الفندق في الصرف على حاجياته، وبالتالي كانت غالبية حركة الحساب في الجانب الدائن. ولكن بعد وفاته بخمسة أشهر، كان هناك تحويل صغير لمبلغ مائة دينار من حسابه! تتبعت المبلغ فوجدت أن أحدا ما في البنك قام بإجراء تحويل داخلي يحمل توقيعات عدد من موظفي البنك الآخرين بحيث تم نقل المبلغ من حساب صديقنا الأرمني إلى حساب سيدة كويتية.

بالعودة لملف السيدة وجدت أنها تبلغ السبعين من العمر وليس لها عمل معروف، وتبين أنها حضرت للبنك في اليوم التالي وحولت مبلغا يقارب ما تم تحويله لحسابها إلى حسابها في بنك آخر. عدت لتتبع تحويل آخر من حساب الأرمني فوجدت مبلغ ألفي دينار، وتبين أنه انتقل داخليا أيضا من حساب الأرمني لحساب سيدة أخرى، وتم سحبه نقدا من قبلها بعد يومين من تاريخ التحويل. بمراجعة ملف تلك السيدة لم أجد ما يشير لوجود أية أنشطة أو علاقة تجارية ممكنة لها بالمطاعم أو الفنادق، وحسابها قبل تلك العملية لم يتضمن شيئا غير تحويلات وسحوبات لمبالغ صغيرة متقطعة، ولا علاقة ظاهرة لها، بالاسم على الأقل، بسعد الأخضر.

ثم لاحظت زيادة في وتيرة التحويلات من حساب صديقنا الأرمني الراحل، وبمبالغ أكبر، وجميعها كانت تتم داخلياً، بدون استخدام دفتر شيكات العميل، ويتم التحويل لحسابات أفراد غالبيتهم من النساء، ليتم بعدها تحويل تلك المبالغ لمصارف داخل realpage=0166xوخارج الكويت، أو سحبها نقدا. وهكذا تمكن «شخص ما»، خلال ما يقرب الأشهر الخمسة، من سحب كامل رصيد «عبداللطيف الأرمني»!

بالغوص أكثر في المستندات، ومراجعة الكتب التي وردت للبنك من كتب وزارة العدل، وردودنا عليها، ومقارنة أسماء المتوفين بسجلات البنك اتضحت الصورة أكثر، وتبين أن هناك ضحايا آخرين، ولكن لم أستطع معرفة حجم المشكلة وعدد من تأثر بها.

وفي اليوم التالي قمت باستدعاء «سعد أخضر» لمكتبي وواجهته بما توصلت له من معلومات فبهت لونه وانهار معترفا بما فعل، وطلب مني الستر عليه، وأنه سيقوم بدفع كل ما قام باختلاسه كاملا، وانه سيرهن سيارته الثمينة، ويقترض مبلغا من المال من بنك آخر، ويؤجل زواجه، ليدفع ما عليه. طلبت منه البقاء في مكتبي، وعدم مغادرته، لحين عودتي، بعد أن وعدته بمساعدته في الأمر.

ذهبت للمدير العام الأسكتلندي وشرحت له الوضع، فشكرني وقال بأن عليّ إبقاء الأمر بيني وبين رئيس مجلس الإدارة، دون تدخله هو، وأنه يثق بما قمت به، وأنه سيتصل بالرئيس، الذي لا يبعد مكتبه التجاري كثيرا عن البنك، ليحضر الآن لتوقيع بعض الأوراق المهمة، وإن علي انتهاز فرصة وجوده لشرح الكيفية التي حدثت بها جريمة الاختلاس.

ذهبت بعد نصف ساعة تقريبا للرئيس في مكتبه ووضعت كافة المستندات أمامه، وقلت له بأن أحد موظفي البنك، وهو كويتي realpage=0167xالجنسية، واسمه «سعد»، ويطلق زملاؤه الموظفون عليه لقب سعد الأخضر أو خضر، بسبب لون عينيه، هو المتهم وقد اعترف بما قام به من سرقة واختلاس لأموال أيتام، حيث كانت مهام وظيفته على مدى سنتين مسك دفاتر الحسابات المجمدة، الدورمنت، واستلام كتب وزارة العدل المتعلقة بالمتوفين، والرد عليها. ويبدو أنه بيت النية على أمر ما مبكرا، حيث كان يقوم بمراقبة حسابات المتوفين الذين ترد أسماؤهم في كتب وزارة العدل، وكان يختار منها أسماء غير الكويتيين بالذات، وخاصة الذين يتصادف وجود حسابات لهم في البنك، والتي تتسم بانعدام حركتها، أو جمودها التام على مدى سنوات، ثم يقوم بعدها بمراجعة ملفاتهم لمعرفة أنشطتهم وعناوين تلك الأنشطة ويقوم أحيانا بزيارتها، ويسأل عنهم، فإن وجدهم من الوافدين الذين يعملون في الكويت بعيدا عن أسرهم ولا أحد يعرف عنهم شيئا، كان يقوم بـ «وضع العين عليهم»، وعندما لا يسأل أحد عنهم، يقوم بإجراء التحويلات الداخلية من حساب هؤلاء لحساب آخر يخصه، وإن بطريقة غير مباشرة.

كما تبين أن غالبية السيدات اللاتي تم تحويل مبالغ حسابات الأرمني وغيره من ضحايا سعد خضر، لحساباتهن هن إما من معارف «سعد» أو قريباته، ومنهن والدته «صافية كاسم» وخالته العراقية «حمدية كاسم» وغيرهن من معارفه. وقد اعترف سعد بأنه كان يعطي قريباته جزءا من تلك الأموال، ويعطي أمه حصة أكبر. وكان حريصا على تجنب استخدام حسابات أسماء تحمل نفس اسم عائلته، لكي يبعد الشك عن نفسه تماما.

realpage=0168xكما تبين أن «سعد الأخضر» قام بالاستيلاء على ما مجموعه 85 ألف دينار من حسابات متعددة جميعها تقريبا لغير كويتيين. وأنه كان يصرف تلك المبالغ على حياته الشخصية وعلى خطيبته، التي كانت تنتمي لأسرة غنية، وكان مضطرا للسرقة لكي يستطيع أن يبهرها بهداياه.

بهت الرئيس عندما علم بحجم المشكلة، وما تسببنا به من حرمان وخسارة ورثة أبرياء من حقوقهم التي استولى عليها موظف البنك، لذنب لا يد لهم فيه، بل حدث ذلك بسبب إهمالنا وقصورنا في وسائل الرقابة الداخلية. وإننا قد لا نتمكن من الوصول أو الاستدلال على كل من استولى سعد خضر على أموالهم، خاصة وأن غالبية من تعرضوا للاختلاس كانوا من أصحاب الأعمال الصغيرة، أو أصحاب الدخل المتواضع، والعناوين غير الواضحة.

قام الرئيس باستدعاء المدير العام لمكتبه وشرح له الأمر وقال له بأن علينا تعويض جميع من نعرف من المتضررين فورا، وأنه سيتولى شخصيا أمر الموظف الكويتي المختلس.

طلب الرئيس ملف «سعد» من شؤون الموظفين واتصل بوالده وطلب منه الحضور للبنك، وطلب مني أن أكون متواجدا أثناء اللقاء.

حضر «رجا»، والد «سعد» في اليوم التالي، وتوجه إلى مكتبي حسبما طلب منه، وعرف

نفسه، وكان مضطربا من طلب البنك حضوره فهو لا يتعامل معنا. هدّأت من روعه وأمسكت بيده وطلبت منه مرافقتي لمكتب رئيس البنك. طلب مني، ونحن نتسلق الأدراج realpage=0169xمعرفة سبب استدعاء الرئيس له، وهو الإنسان البسيط وطمأنته بأن الأمر بسيط، وأنني غير مخول بالخوض فيه، وسيعرفه حالا.

ما أن واجه الرئيس رجا بالمشكلة وعرف ما فعله ابنه به حتى أصيب بصدمة بدت واضحة على وجهه وأصبحت شفتاه ترتجفان وهو يطلب أن يسمع ابنه يعترف بفعلته، فهو غير مصدق ما حدث.

طلب الرئيس حضور «سعد» لمكتبه، دخل هذا بعدها بدقائق، مطأطأ الرأس ولم يحاول أن يرفع رأسه وينظر لأي منا.

واجهه والده بما ذكره الرئيس عن عملية الاختلاس، وطلب منه إما إنكار التهمة وإما تأكيدها، فاعترف سعد بكل شيء وبأنه مذنب ويستحق العقاب، ولكنه سيحصل على قرض ويسدد للبنك كل ما عليه. قال ذلك وهو ونحن نعلم أن ليس بإمكانه أن يحصل أو يستدين ذلك المبلغ الكبير من أية جهة كانت فذلك فوق طاقته.

طلب الأب أن يخرج «سعد» من مكتب الرئيس، فأذن له، وما أن خرج ذليلا حتى وقف رجا وتقدم من الرئيس، وقبل رأسه، وقال: شوف يا طويل العمر، هذا ولدي الوحيد، وشرفي وشرفه مرتبطان، وأنا أعمل في وزارة التربية ومستعد أدفع كل معاشي لكم إلى أن أسدد المبلغ المطلوب منه كاملا. ولا أطلب منكم غير الستر عليه وأن يبقى في عمله مؤقتا، وبعد شهر أو شهرين تنهون خدماته.

وعد الرئيس «رجا» خيرا وأنهى الاجتماع. وما أن خرج الأب حتى كرر الرئيس طلبه مني بضرورة طرد سعد «أخضر» من البنك فورا، وكرر طلبه للمرة الثالثة بضرورة حصر المشكلة وإصلاح ما realpage=0170xأمكن، وتعويض المتضررين عن الخسائر التي تسببنا بها لهم بسبب إهمالنا في أدواتنا الرقابية. كما طلب من المدير العام إبقاء موضوع الاختلاس بيننا نحن الثلاثة، وعدم إفشاء سبب طرد سعد من البنك، ومعالجة الأمر على هذا الأساس، فالفضيحة ستضر بسمعة البنك، ومن الأفضل التعامل مع الأمر على هذا الأساس.

realpage=0171x

الفصل الثاني

رجا وسعد

لا يتذكر «رجا» كيف خرج من البنك، واستدل على مركبته، واتجه إلى بيته. كان يشعر بإعياء شديد وبرغبة في قذف ما في جوفه. وعند إشارات المرور كان يشعر بالحرج الشديد وبأن العرق يتصبب من جبهته متخيلا نظرات باقي سائقي المركبات إليه، وكأنهم يتهامسون، هذا أبو «سعد» هذا الذي سرق من البنك أموال الأيتام.

كان يرتجف طوال الطريق، وكاد شروده أن يتسبب في وقوعه في أكثر من حادث سير. بعد جهد وصل البيت وركن سيارته وترجل عنها ونسي إقفال أبوابها. دخل البيت مهرولا وسأله زوجته عن سعد، فقالت إنه عاد مبكرا من عمله وذهب لينام في غرفته لأنه كان يشعر بصداع شديد... ذهب رجا مسرعا إلى غرفة نوم ابنه وأمسك بيده وجره من فراشه وهو يرتجف من الإعياء والقهر وسأله معاتبا عن السبب الذي جعله يسيئ له في آخر عمره، ويجلب العار للبيت؟ طلب منه أن يخبره فورا بما جرى فقد كانت صدمته كبيرة في البنك، وأن أمه يجب أن تسمع حقيقة ما فعله ابنها وما اقترفه من تصرف مخز. فرد سعد بصوت بالكاد يخرج من فمه بأنه كان بحاجة للمال، للكثير منه، فطلبات خطيبته ليلى لم تكن تنتهي. وأنه لم يكن يشعر أنه يسرق أموال أيتام بل أموال لا أصحاب لها، realpage=0172xتوفوا وتركوها للبنك، وانه كان يعتقد أنه أحق من البنك بها.

انهار الأب جالسا على أقرب كرسي في الغرفة، فلم يكن بمقدوره مواصلة الوقوف. كانت الأم تقف بجانب ابنها، غير مدركة تماما ما كان يجري أمامها، ولكن الرهبة والغضب اللذين كانت تراهما في عيني رجا منعاها من النطق حتى بكلمة. طلب رجا من ابنه أن يشرح له ما فعل في البنك ليرتاح قليلا، بدلا من هذا الجهل الذي يشعر به.

فقال سعد بأنه كان مسئولا عن مسك سجل حسابات عملاء البنك الجامدة أو الدورمنت. وهذه الحسابات ليس عليها حركة، وخوفا من تعرض أرصدتها لأي نوع من سوء الاستخدام فإن البنك يتحفظ على أرصدتها ولا يقبل حركة عليها بغير علم المسؤول. كما كان مسؤولا عن استلام والرد على كتب وزارة العدل المتعلقة بالسؤال عن وجود أي حسابات في البنك لمتوفين، لإعلام ورثتهم بالأمر والطلب من البنك التحفظ عليها لحين ورود تعليمات من العدل بخلاف ذلك. وقال إنه استلم يوما كتابا من وزارة العدل تضمن سؤالا عن وجود أية حسابات باسم عميل سوري الجنسية أرمني الأصل. وهنا انتفضت صافية لسماع كلمة «أرمني»، ولكنها لم تجعل ابنها أو زوجها يشعران بذلك. واستطرد

الابن قائلا إن اسم ذلك العميل كان ضمن الحسابات الجامدة برصيد كبير نسبيا، وليس على الحساب أية حركة منذ أكثر من سنتين، ومن هنا جاءته فكرة تحويل جزء من الرصيد لحساب خالته في البنك، وأقنع نفسه بأن لا أحد سيعلم بالموضوع حتما، فالعميل توفي والوزارة غير معنيةrealpage=0173x والورثة حتما لا يعرفون عن حساب جامد منذ سنوات. وقال إنه قام من فوره بإتلاف كتاب وزارة العدل، وحرك حساب العميل بإيداع مبلغ بسيط فيه من جيبه، وقام داخليا بإجراء التحويل، مزورا توقيعات بعض زملائه وحول مبلغاً مبهما وقدره 1241 ديناراً. مرت العملية دون ان ينتبه أو يلاحظ أحد ما يثير الريبة. ودفعته سهولة الأمر لتكرار السحب من الحساب وتحويل المبلغ لحساب والدته وخالته وإحدى قريباته، وتكرار تحويل تلك المبالغ من حساباته في البنك إلى بنك آخر، بموجب ما لديه من وكالات بنكية، وسحبها نقدا من البنك الآخر. فس الأسماء في بنوك أخرى، وفعل الشيء ذاته مع أرصدة عملاء متوفّين آخرين، منهم مواطن لبناني وآخر فلسطيني وعشرات الهنود والإيرانيين، ومع سيدة كويتية توفيت وهي في الخامسة والتسعين، وتأكد، قبل السحب من حسابها، أنها ماتت عزباء، ولم يكن لها أقارب.

وقال إن كل شيء يسير حسب البرنامج إلى أن انكشف عندما جاء ورثة «كالوست سيروج بازليان» من سوريا للسؤال عن رصيد والدهم. وما أن نطق باسم بازليان حتى صدرت عن صافية شهقة، غطت على اثرها فمها وتركت الغرفة مسرعة دون أن تقول شيئا.

واستمر سعد في سرد ما قام به وكيف كشف مديره في البنك فعلته.

realpage=0174x

realpage=0175x

الفصل الثالث

سعد وناصر

بعد ما يقارب العشرة أيام من حادثة سعد خضر وطرده من البنك، وأنا جالس في مكتبي، وشعور بالتعب والإحباط ينتابني، كالذي شعرت به في ذلك اليوم التعيس الذي أخبرني رئيس البنك بحادثة استيلاء أحد الموظفين على أموال صديقنا المرحوم كالوست، أو عبداللطيف الأرمني، دخل مساعدي إلى مكتبي في البنك وقبل رأسي، على غير عادته، فعرفت فورا أن الخبر السيئ الذي كنت أتوقعه قد حان أوان سماعه. قال لي: البقية في حياتك، لقد سمعت للتو بوفاة سعد خضر في حادث مرور لا نعرف تفاصيله.

انتابتني، لسماع الخبر، مجموعة من المشاعر المتضاربة. لم أشعر بالحزن ولا بالسعادة طبعا، بل بالحيرة الشديدة، غير مصدق ما حصل لسعد أخضر، ذلك الشاب الوسيم والذكي وصاحب الحظ السيئ. أخذت ألوم نفسي فلولاي ولولا ما قمت به من بحث في أوراق البنك وكشف عمليات الاختلاس التي قام بها، لكان اليوم لا يزال حيا بيننا، وشعرت بمسؤوليتي عما حدث له، وبما سببته حتما من لوعة وأسى لوالده ووالدته، وهو وحيدهما.

لا تزال ذكرى تلك الحادثة، بعد مرور كل تلك السنوات، عالقة بذاكرتي، وينتابني نفس الشعور بالحزن وبالمسؤولية الشخصية عن وفاة سعد أخضر، كلما تذكرتها.